الثقافة الإسلامية في مواجهة

الغـزو الفكـري

وتحديات العصـر

دكتور

علي محمد مطاوع وهبه

مدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين ـــ القاهر

المقدمة

لكل أمة ثقافتها التي تؤمن بها وتعمل من أجل ذيوعها وانتشارها وفرضها على الآخرين بكل ما أوتيت من إمكانات.

وهذه الثقافة قد تكون نابعة من بنات أفكار وعقول العلماء والمثقفين والفلاسفة وغيرهم ، بمعنى أنها من فكر البشر ونتاج عقولهم.

وقد تكون هذه الثقافة نابعة من عقيدة الأمة ودينها الذي تؤمن به وعقيدتها التي تعتقدها وتعمل في إطارها.

والثقافة الإسلامية هي تلك الثقافة النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فهي ثقافة قوية ثابتة باقية.

وهذا ما استدعى الأمم الأخرى لمحاربتها والعمل بكل قوة على القضاء عليها وبكل وسيلة وسبيل.

فتارة بالغزو العسكري ، وتارة بالغزو الثقافي، فهل تمكن بالفعل من ذلك أم باءت بالفشل هذا ما استدعاني إلى كتابة هذا البحث ليكون محور الكلام فيه عن الثقافة الإسلامية مفهوما وخصائص، وتصورات وأصولا وغايات ونوع الخلاف بينها وبين الثقافة الغربية ومصدر كل منهما والتحديات التي تواجه الثقافة الإسلامية . ومن ثم جاء البحث على النحو التالي :

مقدمة ، وتمهيد، وسبعة مباحث وخاتمة، وأهم المراجع وفهرست البحث. والله أسأل أن يوفق لما يحب ويرضى.

***

التمهيد

الثقافة هي مرآة الأمة التي ترى فيها حقيقة أمرها ونتاج فكرها وتراثها فهي البوتقة التي تتبلور فيها عقيدة الأمة وعبادها، ومعاملاتها وأخلاقها وتشريعاتها وكل ما يتصل بالأمة من أفكار وتصورات وسلوكيات، ومن ثم فقد تختلف الأمم في ثقافاتها تبعاً لمعتقداتها وما تدين به من أفكار وتصورات وسلوكيات وما تؤمن به من مذاهب فكرية ومادية.

ومن هنا ينشأ الصراع بين الأمم بسبب تلك الثقافات وبسبب أن كل أمة تريد نشر ثقافتها وتعميمها وسيطرتها على ثقافات الآخرين، وهذا هو مكمن الخطر ومنبع الصراعات واصطدام الحضارات كما هو الحال مع الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى، فالثقافة الإسلامية لها مقوماتها وخصائصها وتصوراتها ووسائلها وغاياتها الصادرة والمنبثقة من عقيدتها ودينها وتراثها الموروث جيلاً بعد جيل وستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مهما حاولت الثقافات الأخرى اختراقها والنيل منها بكل الطرق وبشتى الوسائل.

ذلك لأن الثقافة الإسلامية تستمد قوتها واستمرارها وبقاءها من وحي السماء.

وأما الثقافات الأخرى فهي تستمد قوتها واستمرارها من فكر البشر وعقولهم، وشتان بين هذا وذاك ومستحيل أن يقضي الفاني على الباقي.

وفي هذا البحث " الموسوم والمعنون باسم (الثقافة الإسلامية في مواجهة الغزو الفكري وتحديات العصر) محاولة توضيح هذه الفكرة سالفة الذكر وبيان أن الصراع بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات

لم يكن وليد اليوم والليلة بل نشأ مع ميلاد الإسلام وبعثة النبي محمد بن عبد الله عليه الصلاة وأتم السلام.

ثم بينت مصادر الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى وخصائص كل منهما .

ثم أوضحت أهمية الثقافة الإسلامية وضرورة دراستها والوقوف عليها والأخذ بها وتدريسها في دور العلم المختلفة للحفاظ عليها أولاً .

وحماية أبناء الإسلام من الثقافات الأخرى ضماناً لبقائنا وخوفاً من طمس معالمنا وضياع هويتنا وتصبح الأمة لقيطة لا انتماء لها ولا نسب .

وكان منهجي في البحث الآتي :

أقرأ الكتب المتعلقة حول نقطة من نقاط البحث أو حول فكرة من أفكاره ومباحثه، ثم أبلور ما قرأت وفهمت بأسلوب مترابط متسلسل ثم أذكر المرجع التي نقلت منه المعلومة أو الفكرة دون التقيد أحياناً بالأسلوب الذي نقلت عنه، وهذا ما يستدعي ذكر المرجع في الصفحة أو في نهاية كل مبحث ونقطة من نقاط البحث.

وفي ذكر المراجع قد أكون نسيت ذكر المرجع داخل البحث وإن لم أذكره داخل البحث أذكره في آخره.

وأيضاً هناك معلومات ومعارف من خلال قراءاتي واطلاعاتي قد أذكرها دون ذكر المرجع لكنها بالضرورة متمشية مع روح البحث وفي إطاره.

فإن أكن وفقت فمن الله وله وحده المنة والفضل وإن أكن قصرت فمني وعند الله العفو والمغفرة، ومن أساتذتي الكرام السماح والمعذرة .

والله أسأل أن يقبلنا ويتقبل منا.

وصلّ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول

الثقافة . معناها في اللغة ومفهومها في الاصطلاح

معنى الثقافة في اللغة : ـــ

كلمة الثقافة أحد المصادر الثلاثة للفعل الثلاثي ثَقُف بالضم والكسر ككرُم، يكْرُم . وفرِح يَفْرَحُ .

والمصدر منه : ثقْفاً ، ثقَفاً ، ثقافة .

وقد استعمل العرب كلمة الثقافة بمعنى " الحذق والمهارة " تقول السيدة عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ عن أخيها عبد الله بن أبي بكر الصديق ـــ رضى الله عنهما ـــ : " وهو غلام شاب ثقف لقن " [1] أي ذو فطنة ومهارة وذكاء ثابت المعرفة بما يحتاج اليه [2] . وتعني أيضا : سرعة التعلم والفهم . وكذا تقويم المعوج وتسويته وتهذيبه [3] .

وجاءت مادة الكلمة في القرآن الكريم بمعنى الظفر والإدراك والمصادفة .

قال تعالى : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [4] أي اقتلوهم إن أدركتموهم وظفرتم بهم في حل أو حرم.

١) الرحيق المختوم في السيرة النبوية لصفي الرحمن المباركفوري ص ١٨٤.

٢) الثقافة لمالك بن نبي ص ٣.

٣) الرائد معجم لغوي عصري لجبران مسعود ص ٤٨٥ سنة ١٩٦٧م.

٤) سورة البقرة : آية ١٩١

وقوله تعالى : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [1]

والمعنى : إن يظفروا بكم أو يصادفوكم يظهروا ما في قلوبهم من العداوة الشديدة لكم .

إذن فالكلمة تأتي في اللغة على ثلاثة معان : ـــ

١ـــ تأتي على معنى : الخفة والفطنة والمهارة وسرعة الفهم.

٢ـــ تأتي على معنى : الإدراك والظفر والمصادفة . تقول : ثقفته في مكان كذا .. بمعنى أدركته وظفرت به أو صادفته في مكان كذا.

٣ـــ تأتي على معنى : تقويم المعوج وتسويته وتهذيبه. تقول: ثقفت الرماح والأقلام بمعنى أعددتها وسويتها لما هي له ولتؤدي الغرض منها [2] .

وكلمة تثقيف في اللغة تطلق في جانب الإنسان ويراد بها مجازاً : التهذيب والتأديب والتربية .

فيقال مثلاً : لولا تثقيفك إياي ما كنت شيئا ـــ أي لولا تهذيبك وتأديبك إياي ما كنت شيئاً الآن .

وهل تهذبت وتثقفت إلا على يديك [3] .

وكلمة : مثقف : تطلق ويراد بها : ذو السلوك الحسن والأدب الجم والخلق الكريم والعمل الصالح .

فيقال : فلان مثقف : بمعنى أنه فاضل ومؤدب وذو سلوك قويم وخلق مرضي [4] .

١) سورة الممتحنة : آية ٢.

٢) انظر مختار الصحاح للرازي ص ٨٤ ، ٨٥ ج ١. ودائرة المعارف مجلد ٢ مادة ثقف محمد فريد وجدي .

٣) انظر : القاموس المحيط للفيروز آبادي ج٣ ص ١٢٥ط ٢لسان العرب ج٩ ص ٢٠ مادة ثقف .

٤) نفس المرجع السابق .

وعلى الرغم من وجود أصل كلمة الثقافة " ثقف " في اللغة العربية إلا أن الكلمة لم يكن لها استخدام وذكر بين القدامى من العلماء والمثقفين، بل لم تكن شائعة في وصف ذوي العلم والفكر.

وبعد اتصال العرب ـ في العصور الحديثة ـ بالغرب اكتسبت الكلمة في اللغة العربية معنى غير معناها الأصلي ـ الحذق والمهارة ـ بل أصبحت تعني " الإحاطة بالعلوم وبالفنون وبشئون الحياة والناس "[1].

وأصبحت كلمة الثقافة من المصطلحات التي شاعت وانتشرت في العصر الحديث بصورة واضحة في كل المجالات العلمية وغيرها من مجالات الحياة المختلفة في الصحافة والإذاعة ، في المدرسة والجامعة في المجلات والدوريات في الكتب العادية والمراجع وكذلك في المناقشات والندوات.

بل أنشئ لها أقسام علمية في الجامعات باسم الثقافة لكن لم يتوصل إلى مفهوم كامل محدد ، ومدلول واضح للثقافة .

ومن ثم فقد أخذت الكلمة اهتمام المفكرين والباحثين والعلماء والأدباء وأصبحت محور تفكيرهم ومحل اهتمامهم وكثرت محاولاتهم لتحديد مفهومها وإظهار مدلولها ، واتسعت حين استدعى الأمر ضرورة المقارنة بين مصطلح الثقافة وبين غيره من المصطلحات الأخرى.

وظهرت لذلك تعاريف كثيرة اصطلاحية، وتعددت مفاهيم الثقافة بتعدد العلوم الإنسانية " المعنوية منها والمادية " وكذلك تعددت بتعدد مستويات النظر لها . إلا أنه يمكن حصر هذه التعريفات وتصنيفها إلى ثلاثة أنواع :

١) الرائد : مصدر سابق ص ٤٨٥.

١ـ تعريفات تحاول أن تصف محتويات الثقافة : ـ

ومن أمثلتها تعريف كل من تايلور (١٨٧١م) ولوي (١٩٣٧) ، وكروبير (١٩٤٨م) ومالك بن نبي (١٩٧٣م).

وفي هذا الإطار يعرف " تايلور " الثقافة بأنها : " ذلك المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع "[1].

بينما يعرفه ا " لوي" : " بأنها مجموع ما يحصل عليه الفرد من مجتمعه "[2] . أي المعتقدات والتقاليد والنماذج الفنية والعادات التي تصل إلى الفرد كميراث من الماضي من خلال التعليم العفوي أو المنظم.

أما " كروبير " فيعرف الثقافة بأنها " هي مجموعة من العادات يعترف بكونها مقبولة في جماعة معينة كما يمكن متابعة آثارها في كل دوائر النشاط الإنساني كالسياسة والحقوق والفن والدين والمعرفة العقلية بمختلف صورها "[3].

في حين يعرفها مالك بن نبي بأنها " مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته من الوسط الذي يولد فيه وبذلك تكون الثقافة هي المحيط الذي يشكل طباع الفرد وشخصيته "[4].

٢ـ ومن التعريفات ما ينظر إلى الثقافة على أساس أنها قاعدة أو أسلوب حياة . ومن هذه التعريفات :

١) الثقافة والشخصية ص ٣٥ د/ سامية الساعاتي ط دار النهضة العربية ١٩٨٣م.

٢) المصدر السابق ص ٣٧.

٣) مجلة التربية العامة . موضوع مفهوم الثقافة في العلم ص ٣ ١٩٤٩م.

٤) شروط النهضة ص ١٢٣ ط ٣ ـ سنة ١٩٨٢م ترجمة د/ عمر كامل مكاوي ، ود/ عبد الصبور شاهين.

تعريف ويسلر (١٩٢٩م) وتعريف بوجاروس (١٩٣٠م) وكلايد كلاكهون (١٩٥١م) وتعريف كلباترك (١٩٥٤م).

فيرى ويسلر أن الثقافة " أسلوب حياة تتبعه الجماعة يضم كل الإجراءات المقننة " [١].

ويعرفها بوجاروس بأنها " المجموع الكلي لأساليب الفعل والتفكير الماضية والحاضرة لجماعة ما . وهي تمثل مجموعة التقاليد والمعتقدات والأعراف والإجراءات المتوارثة " [٢].

أما كلاكهون فيعرف الثقافة بأنها " وسائل الحياة المختلفة التي توصل إليها الإنسان عبر التاريخ السافر منها والمتضمن العقلي واللاعقلي والتي توجد في وقت معين، وتكون وسائل إرشاد، وتوجه سلوك الفرد الإنساني في المجتمع" [٣].

في حين يعرفها " كلباترك" بأنها " كل ما صنعته يد الإنسان وعقله من مظاهر في البيئة الاجتماعية أي كل ما اخترعه الإنسان أو اكتشفه وكان له دور في العملية الاجتماعية"[٤].

٣ـ وهناك تعريفات تنظر إلى الثقافة على أنها عملية تكيف وتوافق ، وتكسب الفرد أنماطاً سلوكية تلبي حاجاته وتحل مشكلاته، وتساعده على العيش في مجتمعه، ومن هذه التعريفات : تعريف سمنر وكيلر (١٩٢٧م) وتعريف يونج

١) الأصول الثقافية للتربية ص ١٤ لنيلز ترجمة محمد منير مرسي وآخرون ـ عالم الكتب ١٩٧٢م.

٢) الأصول الثقافية للتربية ص ١٤ لنيلز ترجمة محمد منير مرسي وآخرون ـ عالم الكتب ١٩٧٢م.

٣) الإنسان في المرآة ص ١٧ لكلايدكلاكهون ترجمة شاكر مصطفى سليم بغداد ١٩٦٤م مكتبة التراث .

٤) التربية المعاصرة ص ٣٩ محمود شفشق وآخرون ط دار القلم ١٩٧٥م.

(١٩٣٤م) وتعريف لنتون (١٩٥٤م) ، وتعريف بدنجتون (١٩٥٠م).

يعرف سمنر وكيلر الثقافة بأنها " مجموع أساليب تكيف الناس لظروف حياتهم وهذا التكيف لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال أفعال تجمع ما بين التفرع والانتقاء والانتقال " [١].

أما " يونج" فيعرف الثقافة بأنها " ذلك الكل من السلوك المتعلم أو نماذج السلوك التي تتسلمها الجماعة من جماعة سابقة أو جيل سابق عليها ، ثم تسلمها بدورها ـ بعد أن تضيف إليها ـ إلى جماعات لاحقة أو جيل بعده" [٢].

في حين يرى " بدنجتون" أن الثقافة هي " المجموع الكلي للأجهزة المادية والفكرية التي يستطيع بها الشعب إشباع حاجاته الحياتية والاجتماعية وتكييف نفسه لبيئته"[٣].

بينما "لنتون" يعرف الثقافة بأنها " تنظيم لأنماط السلوك والأدوات والأفكار والمشاعر التي تعتمد على استخدام الرموز" [٤].

وهناك أيضاً تعريفات أخرى ينبغي ذكرها منها : أن الثقافة "هي السلوك الذي ينتقل عن طريق التعلم من جيل إلى جيل " .

وفي تعريف آخر أن الثقافة " هي موقف فكري وعمل من تراث البشرية وهي تحقق للقيم الثابتة في أمة معينة وهي نسيج من النظم والأفكار والعقائد والأهداف والآمال والمثل العليا " [٥].

١) الثقافة والشخصية مرجع سابق ص ٤٦.

٢) المرجع السابق ص ٤٧.

٣) الانثروبولوجيا ص ٩١ إبراهيم ناصر الجامعة الأردنية ١٩٨٥م.

٤) الثقافة والتربية في العصور القديمة . وهيب سمعان ص ١٣ ـ ١٩٧٣م مكتبة الأنجلو المصرية.

٥) انظر التربية وبناء الأجيال د/ أنور الجندي ص ٢٢٠.

وهناك أيضاً من أطلق مصطلح الثقافة على معنويات الأمور وماديالها، وعلى الجانب النظري منها وعلى الجانب العملي دينيا كان أم دنيويا، فقال: "تشمل الثقافة فيما تشمله ما يتلقاه الفرد عن الجماعة من مظاهر العلوم والفنون والمعارف والفلسفة والعقائد ، ويشمل التراث الثقافي أموراً معنوية وأخرى مادية ولا تقل إحداها عن الأخرى" (١) .

وجميع هذه التعريفات تجعل الثقافة مصطلحاً اجتماعيا شاملاً كل عناصر الحياة لشعب من الشعوب بما تتضمنه من عقائد وعادات وتقاليد وقيم وأفكار وعلاقات ونظم واختراعات صنعها الإنسان وتوصل إليها خلال مواجهته مشكلات الحياة في بيئته عبر تاريخه الطويل وهذه المعاني للثقافة تجعل الثقافة كائناً حيا ينمو ويتطور بتطور الفرد والمجتمع، ويتحدد من خلالها الألوان المختلفة للسلوك وأنماط التفكير وأساليب التوافق مع الحياة . كما تربط هذه المعاني بين الثقافة والسلوك والتعليم والتربية.

وأمام هذه التعاريف الكثيرة وكلها مترادفة ومتقاربة أمكن للباحثين استخلاص تعريف شامل للثقافة كما يذكر د/ أمير عبد العزيز فيقول : "الثقافة : هي حصيلة العلوم والفنون والمعارف النظرية التي تحصل للإنسان عن طريق القراءة الواعية والدراسة المستمرة، والاطلاع الواسع على أفكار الآخرين ونظرياتهم وتجاربهم ومشاعرهم والتي تؤلف الفكر الشامل للإنسان فتكسبه أسباب الوعي والتقدم والرقي" (٢)

هذا تعريف للثقافة بمعناها العام.

---

١) انظر دراسات في النظم والثقافة الإسلامية ص ٧٨ د/ مصطفى أحمد أبو سمك وآخرون .

٢) دراسات في الثقافة الإسلامية ص ١٧ بتصرف .

أما في الإسلام فلها تعريف يتناسب مع كونها تدور في فلك الإسلام وتنبع من مصادره.

فالثقافة في اصطلاح الإسلام : "هي حصيلة تلك العلوم والمعارف والفنون والتصورات التي تدور في فلك الإسلام وتعطي تصوراً كاملاً صحيحا وفكرة شاملة عن الكون والحياة والإنسان فتؤثر في الفرد والمجتمع تأثيراً يضفي عليهما طابعاً شخصياً معيناً" (١) .

وبناء عليه يمكن تعريف المثقف تعريفاً خاصاً به يميزه عن غيره. فالمثقف : هو ا لذي يعرف شيئاً عن كل شئ ، أو هو الذي يلم إلماماً يسيراً بأكثر ضروب المعرفة.

وبتعريف أوسع : يقصد به ذلك الإنسان الذي اتصل بالعلوم الإنسانية التي ترقي به وتوسع دائرة معارفه وتميزه بالنظرة الشاملة، بحيث ينعكس هذا كله على شخصيته وسلوكه مما يجعل منه رجلاً واسع الأفق مهذباً يحسن التأني للأمور ويجيد التصرف في شئون الحياة يعرف ما عليه من حقوق ويؤدي ما عليه من واجبات.

وينبغي ملاحظة أن العلم التجريبي التكنولوجي ليس هو الثقافة وليس العالم بها مثقفاً فقد نجد عالماً وصل إلى أعلى درجات العلم في الكيمياء أو الفيزياء أو الرياضيات ولكنه جاهل بكل العلوم الإنسانية من أدب ولغة وتاريخ واجتماع وسياسة واقتصاد وتشريع.. إلى آخره كما أن معارفه محدودة تماماً فهذا لا يمكن أن يعد مثقفاً (٢) . إذاً فهناك فرق بين العلم والثقافة... فما الفرق بينهما؟

العلم والثقافة : ـــ

١ـــ الثقافة تطبع الأمة بطابع خاص يميزها عن غيرها ويحدد

---

١) المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧ بتصرف.

٢) انظر المدخل إلى الثقافة الإسلامية . د/ محمد رشاد سالم ص ٥.

شخصيتها وهويتها أما العلم فلا علاقة له بذلك.

٢ــ العلم والثقافة

كلاهما معرفة ، لكن طريقة الوصول إلى كل منهما يختلف عن الآخر ...

فطريقة الوصول إلى العلم هي الطريقة العلمية القائمة على التجربة والملاحظة والاستنتاج.

وطريقة الوصول إلى الثقافة هي الطريقة العقلية التي تقوم على التلقي والإخبار والاستنباط.

٣ــ العلم يأخذ صفة العالمية فهو لا يختص بأمة دون أمة ، لأنه متداول ومتناقل بين الأمم والشعوب دون قيد أو شرط كعلم الكيمياء والفيزياء والطب والهندسة وغيرها ، بخلاف الثقافة. فإن لكل أمة ثقافتها تحرص عليها وتعمل على نشرها وتمنع أبنائها من التأثر بالثقافات الأخرى حرصاً على شخصيتها وتمييزاً لها عن غيرها.

٤ــ العلم يتعلق بالمعنويات والماديات ونتائجه التي يتوصل إليها مادية كالأجهزة والأدوات.

أما الثقافة فتتعلق أيضاً بالمعنويات والتطبيقات لكن نتيجتها معنى وسلوك وعلاقات على وجه ما[1].

وإذا كانت الثقافة بشكل عام من الأمور التي يتحمل بها الإنسان ويستكمل بها مقومات شخصيته فإن الثقافة بعامة والثقافة الإسلامية خاصة هي من الأمور التي لا يمكن الاستغناء عنها ومن الضرورات الحتمية لكل شاب مسلم في هذه الأيام التي يواجه ــ فيها ــ المسلمون تحدياً حضارياً وصراعاً فكرياً وسياسياً ، حيث لا يمكنهم البقاء والصمود دون التسلح بها ولزومها، وبخاصة في الوقت التي

١) الثقافة والثقافة الإسلامية لسميح عاطف الزين ص ٢٢ بتصرف

تعمل فيه الأمم والشعوب على الحفاظ بثقافتها وشخصيتها وكيانها.

ومن هنا تأتي أهمية الثقافة الإسلامية والتمسك بها.

وقبل أن نتكلم عن أهمية الثقافة الإسلامية نبين العلاقة بين الثقافة والحضارة.

الثقافة والحضارة

* الحضارة في اللغة : هي : الإقامة في الحضر، والحضري خلاف البدوي وكذلك الحاضرة ضد البادية، إذ الحاضرة هي المدن والقرى والريف ، والبادية عكسها وعلى ذلك فإن الحضارة خلاف البداوة[1].

* الحضارة في مفهوم الاصطلاح :

(١) هناك من المفكرين والباحثين في هذا المجال من يرى أنه لا فرق بين الحضارة والثقافة وينظر إليهما على أنهما شئ واحد، وأن العلاقة بينهما علاقة تطابق وتلازم فهما اصطلاحان لمسمى واحد يضم نفس الفحوى والمضمون، وأن المظاهر الحضارية المادية والمعنوية تتضافر جميعاً في إنشاء النظم الاجتماعية.

(٢) ومنهم من يرى أن الثقافة قاصرة على الأمور التصورية والاعتقادية وأنواع الفكر المجرد ، وأن الحضارة قاصرة على عناصر الرقي المادي للمجتمع بما يشمل الأمور الصناعية والزراعية والعمرانية وأمثال ذلك مما لا علاقة له بمسائل الفكر والتصور المجردين، فالعلاقة بين الثقافة والحضارة علاقة جزء بكل.

(٣) ومنهم من يرى أن الثقافة إنما تكون في الجوانب العقلية والفكرية فقط والحضارة مقصورة على الجوانب المادية[2].

١) مختار الصحاح للرازي ص ١٤١ ودائرة معارف القرن العشرين ــ محمد فريد وجدي ج٣ ص ٤٥٤ ط ٣.

٢) انظر دراسات في الثقافة الإسلامية (مدخل إلى الدين الإسلامي) د/ أمير عبد

وبناء على ما تقدم من مفاهيم وتعريفات للحضارة والثقافة ، ومهما اختلفت في تفسير العلاقة بين الثقافة والحضارة إلا أنها تتفق على أن تلك العلاقة وثيقة.

فثقافة الأمة وحضارتها تعبر عن المستوى الذي بلغته الأمة في فكرها وأخلاقها وقيمها وعاداتها ووسائلها وتقنياتها.

فالثقافة هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، وتشكل طباع الفرد وشخصيته.

والحضارة هي : مجموعة المعارف العلمية والتشاريع والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحياة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنية، ووسائل مظاهر الحياة المادية والمعنوية في مرحلة من مراحل التاريخ، وفي بقعة من بقاع الأرض سواء شملت شعباً أم أكثر.

فليس هناك فرق بين الثقافة والحضارة إلا بقدر ما بينهما من اختلاف كمي في المحتوى ومن تعقيد في النمط .

فعناصر الحضارة تحمل جانباً ثقافياً، كما أن عناصر الثقافة تحمل الصفة الخاصة بعناصرها الحضارية[1] .

وعليه يمكن القول أن الحضارة تمثل الشئ المرئي للثقافة الذي يعبر عن مستوى تقدمها في مرحلة معينة من تطورها.

وهذا ما أميل إليه فلا توجد حضارة بدون ثقافة ، ولا ثقافة توجد

العزيز ص ٤٨ ، والثقافة والشخصية د/ سامية الساعاتي ص ٤٨ ط بيروت دار النهضة العربية ١٩٨٣م.

١) انظر لمحات في الثقافة الإسلامية / عمر عودة الخطيب ص ٤٨ ، ٤٩ ط مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ ـــ ١٩٨٤م ودراسات في الثقافة الإسلامية د/ أمير عبد العزيز ص ٤٨ ، ٤٩ ، والثقافة والشخصية د/ سامية الساعاتي ص ٤٨ بتصرف.

دون حضارة فهما وجهان لعملة واحدة .

أهمية الثقافة الإسلامية:ـــ

تأتي أهمية الثقافة وضرورة الأخذ بها لكل المسلمين اليوم لأمور ترتبط بفطرهم وغرائزهم الإنسانية قبل أن ترتبط بكونهم مسلمين يؤمنون بهذا الدين ويعملون بأوامره ويجتنبون نواهيه ـــ هي :

الأمر الأول : إنه من الأمور الفطرية الطبيعية أن يكون كل إنسان منتمياً إلى أسرة أو جماعة أو وطن . وبهذا يكون لهذا الفرد شخصيته وعصبيته وجنسيته، ولو نظرنا إلى حالة فرد منبوذ ـــ لقيط أو ابن غير شرعي ـــ في مجتمع لا يرضى به لوجدناه يعيش في جحيم من الضياع والقلق واهتزاز القيم والمبادئ ، وما يصدق على هذا الفرد "اللامنتمي" يصدق على الأمة التي لا شخصية لها أو التي هي ضائعة حائرة تعيش في صراع بين المبادئ والقيم والأفكار والمثل.

لكن ما يبدو الآن أن الأمة الإسلامية وقد غزتها الحضارة الغربية تعيش الآن مرحلة من أشد مراحل القلق والصراع فنجد من بين أبنائها من بهرته تلك الحضارة العارية وأعجبه هذا الغزو الكاذب فانقاد له كل الانقياد ، وطالب بأن نتبع تلك الحضارة اتباعاً أعمى من غير التمييز بين خيرها وشرها، وحلوها ومرها.

بل نجد منهم من يبالغ في ذلك ويتغالى فيأخذ من تلك الحضارة أسوأ ما فيها من مبادئ تقوم أحياناً على الإلحاد وإنكار الأديان والعنف والتدمير والتسلط والقسوة والاستبداد.

وعلى النقيض من أولئك ، نجد آخرين من رجالاتها لا يشعرون بما أصاب الأمة الإسلامية من غزو فكري غير وبدل فيها الكثير مما

يقتضي تطوراً في أساليب العمل والدعوة ، فهم جامدون عند صور وطرائق انتهى إليها المتأخرون من رجال المذاهب الفقهية فلا هم عادوا إلى المنابع الأولى أو إلى الكتاب والسنة وطريق السلف الصالح ولا هم يجتهدون ويجددون بما يقابل ويلائم ما استحدث وجَدَّ في أيامنا هذه ، ولذلك أصبح بينهم وبين أكثر المسلمين فجوة واسعة وهوة سحيقة ولا ريب أن وجود ثقافة إسلامية مشتركة يلتقي عليها المسلمون ويشب عليها الشباب المسلم هو من أهم الأمور وألْزَمِها إذا أردنا لأمتنا النجاة من حالة الضياع والتمزق الفكري الذي نحيا فيه والخلاص من البقاء بدون شخصية مستقلة وفكر موحد للجميع.

الأمر الثاني : الذي يحتم على المسلمين أن تكون لهم ثقافتهم الإسلامية المشتركة الراشدة — متصل بغريزة الدفاع عن النفس — ذلك أن الأمة الإسلامية تتعرض في عصرنا هذا لحرب ضارية — تبدو آثارها اليوم فيما يتعرض له المسلمون في دول الكمنولث من قبل فلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان والفلبين، واليوم أفغانستان، والعراق، والصومال وغيرها من بلدان العالم — يشنها الغرب الصليبي يمده ويدعمه الصهيونية العالمية. ذلك أن الغرب الصليبي اليوم يحس بأفول شمسه وذهاب نجمه — فيريد أن يقضي على كل وليد يمكن أن يرث سلطانه كدأب آل فرعون مع قومه — فهو يخشى تارة المارد الأصفر في أسيا وهو يتوجس إرهاصات النهضة في الأمة الإسلامية. والصهيونية العالمية تتطلع إلى وراثة الحضارة الصليبية ، وهي تراها تسير الآن سريعاً في طريق الانهيار والانحطاط والتمزق والتفسخ والشباب

الصهيوني يندفع بروح التعصب نحو إقامة دولة إسرائيل التي يريدها من الفرات إلى النيل أولاً ، ثم يريدها بعد ذلك أن تسيطر على العالم وتملك ثرواته وموارده ثانياً والمنطقة التي تمتد فيها رقعة العالم الإسلامي هي أغنى مناطق العالم وأزخرها بالثروات الطبيعية كما أنها تضم أهم المناطق الاستراتيجية، فلا غرو أن أصبحت مطمع الطامعين ومحط أنظار المتطلعين.

ومواجهة هذه الأخطار الداهمة لن يكون بمجرد الاستزادة من العلوم التجريبية التكنولوجية ولن يكون بإنشاء الصناعات وتقوية الجيوش فقط بل لابد حتما أن يسبق ذلك ويصحبه تكوين الرجل المسلم — الذي يعلم ويعمل ، ويبني وينشئ ويصنع ويحارب ويقاتل — وتربيته تربية قويمة وتلك مهمة صعبة أصعب بكثير من إنشاء المباني وبناء المصانع ، والثقافة الإسلامية بوجه خاص، هي أهم وسيلة يمكن بها تكوين الرجل المسلم الذي يتصدى لهذه الأخطار، ثم يتقدم بعد ذلك لبعث الحضارة الإسلامية، التي حملت — إلى الإنسانية — لواء الحق والخير والفضيلة والتسامح والرخاء والإخاء ، والأمن والطمأنينة عبر القرون.

الأمر الثالث : التي يستوجب اتجاه كل مسلم إلى الثقافة الإسلامية — هو ما تقضي به فطرة الإنسان من ميل غريزي — إلى وطنه ومن وفاء وولاء لدينه وتراثه وحضارته.

ولسنا ندعو إلى عصبية عمياء ، أو جاهلية حمقاء ، أو أن ينتصر الإنسان لقومه وإخوانه وأهله في الحق والباطل، والخير والشر، ولكن ندعو المسلمين إلى الاستمساك بدينهم القويم ، والارتباط بأخلاقهم وحضارتهم العظيمة وألا يندفعوا إلى

تقليد أعدائهم في كل شئ وإلى إتباع خصومهم في الفكر والعمل.

وإذا كانت الرجولة والمروءة والهمة تقضي بألا يمد الإنسان يده سائلاً الناس ومستجدياً الآخرين إلا إذا تأكد من أنه لا يملك في بيته ما يسد رمقه فإن المروءة تقضي بألا يتنكر المرء لأهله وعشيرته لشدة ألمت بهم أو مصيبة نزلت بساحتهم.

والفطرة السليمة تقضي ألا يجري العاقل وراء معدن براق زائف وفي خزائنه الذهب الخالص ولكن علاه الغبار وغطته الأتربة.

الأمر الرابع : الذي يدعو ويلح على ضرورة الأخذ بالثقافة الإسلامية وحتمية تدريسها .

أننا نعيش الآن عصر الغزو الفكري الحضاري والثقافي ، والذي اقتحم علينا البيوت ودخل علينا من الأبواب والنوافذ، وطار إلينا مع الهواء ومع موجات الأثير عن طريق وسائل الإعلام المختلفة المسموع منها والمقروء والمرئي. وهذا أمر خطره عظيم وضرره بالغ وآثاره سيئة ، وليس من المعقول أن نترك الأمر هكذا ونستسلم ـ لهذا الواقع الأليم ـ دون مقاومة ومجابهة ، ولن يكون ذلك إلا بتحصين أولادنا وأنفسنا بثقافة الإسلام القوية الثابتة التي ليس لها بديل ولا مثيل .. ذلك لأنها :

أولا : ثقافة ثابتة متينة زاخرة واعية مستنيرة قادرة على إيجاد الإنسان القوي المتكامل الصالح الخالي من الخلل والنقائص والعيوب.

ثانيا: ثقافة تتسم بالاتساع والشمول إذ تحتوي على كافة المقومات التي تنهض عليها الثقافة السليمة الكاملة فهي ليست كغيرها من الثقافات الأخرى التي تفتقر إلى كثير من الأسس والدعائم الهامة الضرورية ـ لتكوين الإنسان المتكامل والفرد الصالح ـ والتي تستند عليها .

ثالثا : إنها ثقافة متكاملة متناسقة بمعنى أن أجزاءها ومقوماتها يكمل بعضها بعضاً ، وهي كذلك تتصف بالمتانة والعمق فلا تتفق مع الضعف والسطحية بأية حال لأنها تدور في فلك الإسلام برسوخ عقائده وروعة تصوراته وشمول مبادئه ونظمه[1].

وإذا كان الأمر كذلك فإنه من سقوط الهمة وضعف المروءة ونقصان العقل، أن نسارع إلى الأخذ من الثقافات الأخرى قبل أن ندرس ثقافتنا الإسلامية، ونقف على ما فيها ونتعرف عليها ونجتهد في فحصها، وإحياء هذه الثقافة وتجديدها وبث الروح فيها بعد أن جثم الغزو الفكري علينا واقتحم ديارنا وأهلينا يريد أهل هذا الفكر الخارجي محو المسلمين وتدمير مجتمعهم وتحطيم أمتهم الإسلامية وتفريغها من كل مضمون روحي وإسلامي، لتظل بلا ثقافة ولا فكر وتبقى خاضعة لأفكارهم وثقافتهم.

إذن فلابد من ضرورة الأخذ بالثقافة الإسلامية ونشرها لأنها الدرع الواقي والحصن المنيع الذي يحفظ كياننا ، ويحمي مجتمعنا الإسلامي ويصون أبناءنا من خطر داهم وشر مستطير يكاد أن يفتك بأمتنا الإسلامية وثقافتنا المرتبطة بتراثنا وحضارتنا وديننا الحنيف.

أثر الثقافة الإسلامية في الحياة

تعد الثقافة من السمات البارزة والميزات الخاصة التي تتميز بها الأمم والشعوب بعضها عن بعض.

وتاريخ الشعوب العظيمة والنبيلة ، إنما يستمد من ثقافة الشعب ومعارفه ووعيه وسلوكه

---

١) المدخل إلى الثقافة الإسلامية . للدكتور محمد رشاد سالم ص ٥ : ٨ بتصرف بسيط ، ودراسات في الثقافة الإسلامية ص ٤٨ ، ٤٩ بتصرف.

وإدراكه ووجدانه ولا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة ، والأمة التي تفقد ثقافتها تفقد تاريخها وحضارتها ، لأن الثقافة هي كيان الأمة وعلامة تقدمها ورقيها، فإذا انمحت الثقافة اضمحلت الأمة وتاهت بين الأمم وأصبحت بلا شخصية ولا كيان.

وإذا كانت ثقافة الأمم تعتمد أساساً على عقيدتها وعبادتها وقيمها الأخلاقية والاجتماعية، فإن الثقافة الإسلامية تتميز بذلك عن غيرها من الثقافات، لأن مصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة [1] ، ومن ثم فللثقافة الإسلامية آثار طيبة — في حياة الفرد والمجتمع والأمة — منها :

١— تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى والإخلاص له . قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [3].

٢— التمكين لدين الله في الأرض ، ونشر الإسلام وثقافته بين الناس، وإزاحة الحواجز التي تحول بينهم وبينه وأكبر شاهد على ذلك الفتح الإسلامي لدولتي الفرس والروم واعتناقهم الإسلام مع ما لهم من تاريخ وثقافة وحضارة.

٣— انتشار العلم والقضاء على الجهل ونبوغ كثير من العلماء في شتى نواحي العلم وفروع المعرفة وجميع ما يحتاجه الناس.

٤— وجود حضارة إسلامية متماسكة تتصف بالقوة والاستقلال.

٥— وجود المجتمع القوي الثابت المترابط بقيمه وأخلاقه المتمسك بدينه وعقيدته، المتميز في تعامله وسلوكه.

٦— الاحتفاظ بكيان الأمة والحفاظ على تراثها واستقلالها وتميزها عن غيرها حتى لا تكون إمَّعَةً لغيرها من الأمم والشعوب.

٧— ربط الأمة بالقرآن الكريم مصدر علومها ومعارفها وثقافتها وحضارتها، النبع السخي الذي أغدق الخير بلا حدود وأضفى على الأمة طابعاً حضارياً له خصائصه النبيلة ومقوماته الأصيلة.

٨— إنها تعطي تصوراً شاملاً كاملاً صحيحاً عن الكون والإنسان والحياة فتمنح الفرد والمجتمع القوة والعزة والكرامة والإيمان . "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ......".

* * *

المبحث الثاني
مكونات الثقافة

وبناء علي ما تقدم من تعاريف للثقافة بوجه عام والثقافة الإسلامية بوجه خاص يمكن تقسيم مكونات الثقافة إلي مكونات ثلاثة.

١ – مكونات عامة :

وتشمل جميع الأفكار والتصرفات والمشاعر المشتركة بين جميع الراشدين من أبناء المجتمع، فالدين واللغة، والقيم، والمثل العليا للعلامات الاجتماعية والعادات والتقاليد، هي عموميات يشترك فيها أبناء المجتمع الواحد، ويسلم بها أفراده تسليماً قوياً، ويتقبلونها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وكلما تمسك أفراد المجتمع بهذه العموميات دل ذلك علي درجة تماسك المجتمع ذاته. ولذا فهي مكونات ثابتة عصيّة علي التغير إلي حد بعيد .

---

١) قيم حضارية في القرآن الكريم توفيق محمد سبع ج١ ص ٥١ ، ٥٢ بتصرف كبير.

٢) سورة الذاريات آية : (٥٦).

٣) سورة البينة آية : (٥).

والمكونات العامة للثقافة هي ثمرة للعقيدة المشتركة والتاريخ المشترك، واللغة المشتركة، والتعليم المشترك والخبرات العامة التي اكتسبها أبناء المجتمع أثناء تفاعلهم مع الظروف الجغرافية والاقتصادية والسياسية والدينية المحيطة بهم. وهذه المكونات العامة "يربط بين أفراد الجماعة وتشكل طرق معيشتهم وشخصياتهم في قوالب معينة" [١] ويمكن القول إن هذه العموميات هي التي تعطي المجتمع لونه الذي يميزه عن غيره من المجتمعات، أو بمعني آخر هي التي تشكل شخصيته، فلكل مجتمع شخصية نمطية تماما مثل الأفراد ويستطيع أفراد المجتمع الواحد أن يتعارفوا بل أن يتجاذبوا إلي بعضهم، خصوصا عند تواجدهم خارج مجتمعاتهم بحيث يتم التعارف بيسر وسهولة.

٢ – مكونات خاصة:

وهي تلك المكونات الثقافية التي لا يشترك فيها جميع أفراد المجتمع، وإنما يشترك فيها أفراد من فئة معينة أو قطاع معين من فئات المجتمع وقطاعاته. فلكل مهنة معارفها وقيمها ومهاراتها وسلوكياتها التي تميز المنتمين لها دون غيرهم. وتعد الخصوصيات أنماطاً ثقافية يظهر فيها التمايز والتفاوت داخل إطار الثقافة العامة دون أن يتعارض ذلك معها.

وتعبر الخصوصيات عن اختلاف قدرات الأفراد وتمايز تخصصاتهم ومهنهم. فلكل من الأطباء والمعلمين والمهندسين والتجار والصناع مكونات ثقافية تخصهم دون غيرهم، وتظهر في سلوكياتهم وطرق

١) بزوغ العقل البشري — نورمان بريل — ترجمة إسماعيل حقي ص ٣٨٤ — ٣٨٥ مكتبة نهضة مصر ١٩٦٤م. بتصرف بسيط.

وانظر الثقافة والغزو الثقافة نظرة إسلامية — محمد عبد العليم مرسي.

معاملاتهم وأساليب حياتهم وتصرفاتهم حيال المشكلات التي تواجههم.

وهذه المكونات الخصوصية تحظي باعتراف المجتمع وتقديره لما يعود عليه من نتائج طيبة من ثقافات أبناء هذه المهن والحرف الذين يشتركون مع غيرهم من أبناء المجتمع في العموميات وإن كان لهم خصوصياتهم الثقافية.

ومثلما تستمد المكونات الثقافية العامة مقوماتها من ظروف المجتمع وتاريخه المشترك تستمد الخصوصيات مقوماتها من ظروف كل جماعة، ومن متطلبات المهنة أو الحرفة التي يزاولونها، فالمكونات المتخصصة في الثقافة "ثمرة مباشرة من ثمار التربية والتعليم بمعناهما الواسع، فالبيئة الاجتماعية أو المهنية أو التعليمية التي عاش — ويعيش فيها كل إنسان تحدد إلي حد بعيد تلك المكونات المتخصصة وتوجه مسارها في اتجاه معين" [١] ويلاحظ أن الخصوصيات أكثر استجابة للتغير من العموميات. فلا يقاوم التغير من مجال الخصوصيات بمقاومة تذكر مقارنة بالعموميات [٢].

كما يلاحظ أن خصوصيات الثقافة أكثر عدداً في المجتمعات المتحضرة منها في المجتمعات الأقل تحضراً.

٣ – مكونات متغيرة:

وهي مكونات من الثقافة لا تندرج تحت المكونات العامة (العموميات) فهي ليست عامة بين أبناء المجتمع.

ولا تندرج تحت المكونات الخاصة، لأنها لا تخص جماعة أو فئة بعينها دون غيرها — وإنما هي مكونات ثقافية تنتشر بين أفراد

١) انظر التربية الإسلامية وتحديات العصر — د/ عبد الغني عبود ود/ حسن إبراهيم عبد العال ص ٢١١ دار الفكر العربي.

٢) التربية وتحديات العصر — مرجع سابق ص ٢١٠.

معينين لفترة من الزمان ولظروف معينة سرعان ما تتغير بعدها إلي حالة أخري .

فإذا ثبت نجاحها وقدرتها علي أن تتلاءم مع الثقافة السائدة في المجتمع فإنها ترسخ، ومن ثم تتحول من العموميات أو الخصوصيات، وإن تنافرت مع هذه أو تلك فإنها تنقرض وتموت وتسمي هذه الحالة بالتقاليع" (1)

وهذه المكونات من الثقافة ـــ المتغيرة ـــ هي أكثرها عرضة للتغير لأنها عادة تخص الوسائل والأساليب، والطرائق فاكتشاف طريقة حديثة لتفتيت الحصى بالكلي مثلاً يمكن أن تندرج تحت المكونات المتغيرة، طالما أنها تحت التجريب والاستخدام المحدود، فإن تأكد الأطباء من جدواها انتشرت وصارت من خصوصيات الأطباء. ويطلق عليها المتغيرات الثقافية، لأنها تتضمن تنوعاً واسعاً من الأفكار والعادات والسلوك وطرق التفكير غير المستقرة وتظل المتغيرات الثقافية حائرة علي هامش الثقافة حتى تستقر بين عموميات الثقافة إذا تبناها جميع أفراد المجتمع، أو تنضم إلي خصوصيات الثقافة إذا تبناها أفراد فئة معينة من فئات المجتمع .

وعموماً فإن الثقافات الحديثة المعاصرة تختلف عن الثقافات الماضية بكثرة المتغيرات والبدائل الثقافية ، فكل يوم ينم عن التغير والتطور المستمر ـــ ويتوقف هذا علي مدي احتكاك الثقافات بغيرها من الثقافات، وازدياد عدد المتغيرات الثقافية يشير ـــ عادة إلي حيوية الثقافة (2)

ولكن يجب أن نعلم أن انتقال مكونات ثقافية من ثقافة إلي ثقافة أخري لا يؤدي بالضرورة إلي التقدم

١) المصدر السابق ص ٤٧.

٢) انظر الأسس الاجتماعية للتربية . د/ محمد لبيب النجيحي ص ٢١٥ ، ٢١٦ ـــ مكتبة الأنجلو المصرية ـــ القاهرة.

بل علي العكس قد يؤدي ذلك الانتقال إلي تفسخ ثقافة المجتمع وتحللها، لذا فيجب أن يتم نقل المكونات الثقافية من ثقافة إلي أخري وفق معايير وشروط تحددها طبيعة المجتمع وحاجاته . هذه هي عناصر الثقافة العامة والخاصة بوجه عام .

وهي أيضا أوجه الصراع بين الثقافة الإسلامية وبين غيرها من الثقافات الأخرى .

ومنشأ هذا الصراع : هو أن الثقافة الإسلامية قامت علي أصول ثابتة محددة، لا تقبل الزيادة ولا النقصان، ولا التحريف والتبديل ولا التغيير أو التعديل فهي تقوم علي عقيدة الإيمان بالله تعالي والإيمان بالملائكة والإيمان بالأنبياء والرسل والكتب الصحيحة المنزلة من عند الله لهداية البشر وسعادتها في الدنيا والأخرى، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث، وحشر، ونشر، وحساب، وجزاء، وجنة ونار، كما أنها تقوم علي التشريع الإلهي في كل شيء من جوانب الحياة يتعلق بالإنسان في حركة الحياة من مبدأه إلي منتهاه فالتشريع الإسلامي حدد معالم الحياة وآبان الطريق أمام الإنسان في كل حركة وسكون، في كل شئون الحياة : وأوضح علاقته بالكون وعلاقته بأخيه الإنسان وبقية الأجناس البشرية علي وجه الأرض وعلاقته أيضاً بالحياة ، وكيف يحيا ، فالمسلم يحيا في الدنيا بحركة الآخرة ، ويحيا للآخرة بحركة الدنيا فهما مرتبطتان بعضهما ببعض ، ولا يستطيع المسلم يصل إحداهما عن الأخرى هذا العكس تماماً في الثقافات الأخرى التي قامت علي الفكر البشري البحت وقامت علي فكرة إنكار الدين وما يتعلق به ، وفصلت الدين عن الدنيا ، والدنيا عن الآخرة فهناك إذاً تباين شديد،

وصراع بين الثقافتين ، وهذا الصراع يأتي من أوجه كثيرة ، من جهة المصدر، والخصائص، والتصورات ، والنوعية والغاية صراع فكري يتمثل في المصدر ــ الخصائص والتصورات صراع مادي يتمثل في النوعية والغاية.

* * *

المبحث الثالث

أولا : مصادر الثقافة الإسلامية

تستمد الثقافة الإسلامية صفة الأصالة والثبات والدوام والاستمرار والعمق والرسوخ ــ من كونها تأخذ معالمها ومعارفها وتصوراتها ــ من مصادر أساسية قوية ثابتة، لا يطرأ عليها التبديل ولا التغيير ولا الضلال والانحراف

أول هذه المصادر هو "القرآن الكريم"

ثاني هذه المصادر هي "السنة النبوية المطهرة"

ثالث هذه المصادر هي "السيرة النبوية العطرة والتاريخ الإسلامي"

رابع هذه المصادر هي "التراث الإسلامي (الفكر الإسلامي)"

النابع من القرآن والسنة والمتمثل في العقيدة والفقه واللغة ، والأخلاق ــ الاجتماع ــ والتفسير

وما إلي ذلك من علوم الإسلام ومعارفه .

وهذا أمر لا يتوفر لدي الثقافات الأخرى ولا تتمتع به، فكلها من وضع البشر وصنع العقل الإنساني .

ومن ثم فالثقافة الإسلامية تحمل من الأصالة والثبات ما يجعلها جديرة بالظهور والإزدهار والتمايز علي غيرها من تلك الثقافات ولنا أن نقف علي كل مصدر لنتعرف عن قرب تلك المصادر وماهيتها .

المصدر الأول : القرآن الكريم : وهو كلام الله عز وجل المنزل علي رسوله محمد ــ صلي الله عليه وسلم ــ بلفظه ومعناه جلياً في اليقظة والصحو عن طريق الوحي، المعجز المتعبد بتلاوته المنقول إلينا بالتواتر المفيد للقطع واليقين ــ المتحدي بأقصر سورة منه المكتوب في المصاحف من أول سورة الفاتحة إلي آخر سورة الناس". تكفل الله بحفظه.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [1] . ونفي عنه التغيير والتبديل والتحريف .

قال تعالي : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [2] .

وضمنه هداية البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة فهو مصدر هداية وإرشاد ومنبع توجيه وتشريع وهو منهج حياة وتربية سلوك كما أنه مصدر علوم ومعارف وثقافات .

صاغ الحياة الإنسانية من كل جوانبها المادية والمعنوية صياغة كاملة ، وأحاط بها إحاطة شاملة في كل نواحيها المختلفة وصورها المتعددة (في العقيدة ــ الشريعة ــ الأخلاق الاجتماع ــ الاقتصاد ــ وكل ما يتعلق بمعاش الإنسان ومعاده وكل ما يهمه من مبدأه إلي منتهاه .

---

١) سورة الحجر : آية ٩ .

٢) سورة فصلت : آية ٤٢.

وإلي جانب ذلك وجه الفكر ونبه العقل وأرشد الإنسان إلي التأمل والتدبر والتفكر فيما حوله من المكونات والأكوان، وحثه علي السعي والجد والبحث والتنقيب عن مكنونات الله في الكون واستخراج ما فيه من كنوز وذخائر أودعها فيه لنفع الإنسان في حياته ومعاشه .

ثم بعد ذلك حض علي العلم والتعلم، وأشاد بالعلم والعلماء وأقسم بأدوات العلم ووسائله .

فكانت أول آية نزلت في القرآن الكريم.

قوله تعالي : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ (١).

وأقسم بأدوات العلم ووسائله.

١) سورة العلق : آيات ١ ــ ٥.

قال تعالي : ﴿ نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① ﴾ (٢).

وأشاد بالعلم والعلماء ، ورفع أهل العلم تكريماً وتقديراً ورفعة ..

قال تعالي : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ ﴾ (٣).

وجعل أهل العلم في المرتبة التالية لله والملائكة مباشرة.

قال تعالي: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤).

ولما كان العلماء بتأملهم وتدبرهم وتفكيرهم وبحثهم هم أقرب الناس إلي معرفة الله عز وجل والتعرف عليه من خلال خلقه ومخلوقاته كانوا هم أشد الناس خشية

٢) سورة القلم : آية ١.

٣) سورة المجادلة : آية ١١.

٤) سورة آل عمران : آية ١٨.

لله عز وجل وكانوا هم أعلي الناس قربا ومنزلة عند الله عز وجل.

قال تعالي : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ؟ ؟ ؟ "(١).

ولذلك فقد أقبل الناس علي القرآن الكريم يقرأونه ويتدبرون آياته ويتفهمون مقاصده ومراميه ويتعلمون أحكامه وينهلون منه علومهم ومعارفهم، وجعلوه مصدر حياتهم وقوام معاشهم وتقويم سلوكهم وحركة سيرهم وسكونهم، وينبوع ثقافاتهم المختلفة في كل جوانب الحياة ومجالاتها .

يقول النبي ﷺ : " القرآن الكريم "كتاب الله تعالي فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغي الهدي في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق علي كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② ﴾ (٢) . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل . ومن دعا إليه هدي إلي صراط مستقيم" (٣)

وهذا مستشرق فرنسي يشهد بذلك فيقول : " إن القرآن الكريم أفضل كتاب أرسلته العناية الإلهية للنبي محمد صلي الله عليه وسلم ــ فهو بمثابة ندوة للعلماء ومعجم لغة للغويين، ونحو لمن أراد تقويم لسانه وإن القرآن الكريم دائرة معارف

١) جزء من آية (٢٨) سورة فاطر .

٢) سورة الجن : آية ١ ــ ٢.

٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ج٢ ص ٥٥.

عامة للشرائع والقوانين وإن القارئ ليسجد لعجائبه التي تتجدد وأسراره التي لا تنفد" (١) .

وبعد ذلك كله فالقرآن يحمل في أسلوبه وترتيبه وعلومه ومعارفه وأخباره عن الغيبيات وتنبؤاته وتشريعاته عناصر الإعجاز والتحدي لمعارضيه .

قال تعالي: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ ﴾ (٢) .

كما يحمل أيضاً آيات الدلالة علي صدق الرسالة ونبوءة النبي محمد صلي الله عليه وسلم.

١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم " لموريس بوكاي " مستشرق فرنسي ص ٨٥، ٨٦.

٢) سورة الإسراء : الآية (٨٨).

المصدر الثاني : السنة النبوية المطهرة :ـــ

وسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم : لها مكانتها بالنسبة إلي القرآن، ولها مكانتها بالنسبة إلي التشريع .

إنها المصدر الثاني ـــ بعد القرآن ـــ للإسلام ، إنها المصدر الثاني للإسلام باعتباره عقيدة والمصدر الثاني للإسلام باعتباره تشريعاً والمصدر الثاني للإسلام باعتباره أخلاقاً .

ولئن كان القرآن الكريم روحاً من أمر الله ، ووحياً من لدنه سبحانه يهدي إلي التي هي أقوم في العقيدة والتشريع والأخلاق والسلوك، فلقد كانت السنة ـــ كذلك وحياً وفي حكم الوحي وكان شأنها ـــ مع القرآن ـــ شأن البيان مع المبين ، لا يسوغ فصلها عنه، ولا فهمه وتطبيقه في حياة الفرد والجماعة دون الرجوع إليها والصدود عنها .

فلقد أوحي الله تعالي إلي نبيه صلي الله عليه وسلم ـــ كتابه العظيم كما أوحي إليه معه بيانه الحكيم ، إتماماً للنعمة ، ومنعاً للقول في كتاب الله ودينه بغير ما جاء عن الله ورسوله.

ولقد امتن الله علي الأمة بما أوحي إليها من القرآن والسنة ، والسنة هي الحكمة المبينة للقرآن، والمتكاملة معه في توضيح المنهج الأقوم لتنظيم شئون هذه الحياة في العقيدة، والتشريع وفي الأخلاق والسلوك .

امتن الله بالقرآن والسنة ونظمها ـــ في عقد واحد ، وجعل مناط هذا الامتنان هو كونهما أنزلا معا علي نبينا محمد صلي الله عليه وسلم ـــ دون أن يقتصر الإنزال والوحي علي القرآن وحده . هذا ما يشير إليه قوله تعالي ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ (١)

ولهذا اعتبرت السنة هي المفسر الثاني للقرآن الكريم والكتاب العزيز بعد القرآن نفسه قال الإمام ابن كثير رحمه الله : "فإن قال قائل : "فما أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب : إنّ أصح الطرق في ذلك : أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ولهذا قال صلي الله عليه وسلم : " ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه" يعني السنة ...

والسنة ـــ أيضاً تنزل عليه بالوحي كما يتنزل القرآن إلا أنها لا تتلي كما يتلي القرآن " (٢) .

١) سورة البقرة : جزء من آية رقم ٢٣١.

٢) تفسير ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ ج٣ ص ١.

والله عز وجل حين أنزل كتابه حدد مهمة نبيه عليه السلام من هذا الكتاب في :

الأول : تبليغ ما أنزل إليه كما أنزل.

قال تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١) ويقول أيضا : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢)

الثاني : بيان ما أنزل إليه بيان الله عز وجل.

قال تعالي : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٣) وقوله تعالي : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ (٤) أي بيانه واظهاره بلسانك فتقروه كما أقرأك جبريل وعلينا كذلك بيانه أي تبين ما فيه من الأحكام وما يتعلق بها من الحلال والحرام ، والتفصيل والإجمال والتقييد، والإطلاق .

قال ابن حجر رحمه الله :

قوله : "بيانه" جنس مضاف فيعلم جميع أصنافه من إظهاره وتبين أحكامه وما يتعلق بها من تخصيص وتقييد ونسخ وغير ذلك (٥).

---

١) سورة المائدة : آية ٦٧.

٢) سورة يونس : آية ١٥.

٣) سورة النحل : آية ٤٤.

٤) سورة القيامة : آيات ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩.

٥) فتح الباري ج ٨ ص ٥٥٥.

الثالث : من مهام النبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ تعليم الناس أحكام دينهم وكتاب ربهم ، وتقويم سلوكهم ، وتزكية نفوسهم. قال تعالي: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (١).

كما أخبر سبحانه وتعالي أن من وظائف الرسول صلي الله عليه وسلم أنه يأمر وينهي ويحل ويحرم قال عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (٢).

وما دام اللفظ عاماً في الأمر والنهي والتحليل والتحريم ، فهو شامل لما كان من القرآن ، ولما كان من غير القرآن مما يوحيه الله إليه.

ولعل مما يؤكد هذا أنه سبحانه جعل قضاء رسوله وحكمه قضاء لله تعالي وحكماً ليس للمؤمن ولا للمؤمنة بإزائه إلا أن يذعن وينقاد، قال تعالي : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (٣).

---

١) سورة آل عمران : آية ١٦٤.

٢) سورة الأعراف : آية ١٥٧.

٣) سورة الأحزاب : آية ٣٦.

هذا فضلاً عن أن طاعة الرسول ومبايعته طاعة لله ومبايعة له [١] .

ولسنا نعتقد، أن يجعل الله طاعة رسوله طاعة له، ومبايعة رسوله مبايعة له سبحانه، ثم يعطي لأمره تلك المنزلة والمكانة لولا أن عليه الصلاة والسلام إنما يصدر في هذه الأمور كلها عن الله عز وجل، وبمتابعة منه سبحانه.

ومن ثم تأتي أهمية السنة ومكانتها كأهمية القرآن الكريم وقيمته [٢] . يقول الغزالي :

" وتبرز الأهمية والقيمة للسنة النبوية في أنها ترسم للمسلمين الطريق العملي لحياة الإسلامية فالقرآن الكريم هو قانون الإسلام والسنة النبوية هي تطبيقه والمسلم مكلف باحترام التطبيق ، تكليفه باحترام القانون نفسه " [٣]

المصدر الثالث : السيرة النبوية المطهرة : ــ

والسيرة النبوية الشريفة تعتبر من مصادر الثقافة الإسلامية وهي المصدر الثالث من مصادرها لأنها تتعلق بحياة الرسول صلي الله عليه وسلم كلها من البداية إلي النهاية نعم تتعلق بنسبه وحسبه وعمله وتجارته وبعثته ورسالته وتتعلق بغزواته ودعوته، وإقامته وترحاله تتعلق بكل شيء في حياته وتحكي وتقص لنا أعماله . ولا ريب أن سيرة هذه النبي العظيم صلي الله عليه وسلم إنما هي الأساس الكامل لدعوته العظيمة التي أضاءت المشارق والمغارب وملأت العالم بالهدي والنور ومن أجل ذلك تأتي أهمية هذه السيرة الوضاءة

١) قال تعالى : " من يطع الرسول فقد أطاع الله ... " سورة النساء : آية ٨٠ ، وقال تعالى : " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ... " سورة الفتح آية: ١٠.

٢) شذرات من علوم السنة ص ١ ــ ٥٠ بتصرف د/ محمد الأحمدي أبو النور.

٣) فقه السيرة ص ٢٦ ، ٢٧ للشيخ محمد الغزالي ــ رحمه الله ــ .

العطرة للمسلمين بل للإنسانية جمعاء حيث تناقلتها الأمم والشعوب وحفظتها الأجيال جيلاً بعد جيل ثم سجلتها بعد ذلك علي مختلف العصور في كتب يضيق عنها الحصر والتعداد وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات إلي أن تنفطر السماء وتتكدر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات .

منها علي سبيل المثال لا الحصر (سيرة ابن هشام ، سيرة ابن كثير المسيرة الحلبية ، مغازي رسول الله للواقدي ــ جوامع السير لابن حزم وغيرهم كثيرون ممن ألفوا وما يزالون علي الدرب يكتبون .

وإذا كانت سيرة الإنسان تتمثل فيها عناصر عظمته فقد انتهت بحوث البصراء بطبيعة النفوس إلي تلخيص عناصر العظمة في أمور أربعة .

١ ــ الأخلاق الرفيعة التي يتميز بها العظيم .

٢ ــ سمو المبادئ التي يدعو إليها .

٣ ــ قدرته علي التأثير وتكميل غيره بعد كمال نفسه .

٤ ــ نجاحه في صياغة جيل يتمثل مبادئه ويتحمل الأمانة من بعده.

والمتأمل في سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم يخرج بيقين جازم أن رسولنا الكريم ــ من خلال استقراء سيرته العطرة قد استجمع هذه الخصائص جميعاً وعلي أوفي معانيها ، لقد التقي فيه من خصائص القيادة كل ما تفرق في نفوس العظماء من سمات...

فإذا رحت تتأمل شخصيته الفذة بهرتك أضواؤها حتى لكأنك منها في بستان مورق مثمر ــ فيه من كل زوج بهيج .

ومن ثم أقبل المسلمون علي سيرته العطرة دراسة وتعليماً ، وتأليفاً

وتدويناً وتفهيماً وتثقيفاً ، (فهذا سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه يعلّم أبناءه سيرة الرسول ﷺ ومغازيه وسراياه ثم يقول لهم : " يا بني هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها " . وهكذا ستظل سيرة النبي ﷺ مشعل هُدى ومصباح نور ومصدر ثقافة ومعرفة على مر السنين والأعوام [1] .

المصدر الرابع : التاريخ الإسلامي :ـ

تعتبر التاريخ الإسلامي مصدر ثقافة لأنه سجل حافل بالأحداث والوقائع التي حدثت وتحدث على مسرح الحياة الإسلامية منذ بعثة النبي ﷺ إلى اليوم .

ويمثل التاريخ الإسلامي كل ما يتعلق بحياة المسلمين وعلاقاتهم، وسلمهم وحربهم وتراثهم، وفتوحاتهم وانتصاراتهم وغزواتهم كما يشمل أيضاً سيرة نبيهم ﷺ ولا يخفى على ذي بصر ما في هذا من ثقافات ومعارف وعلوم وحضارة تضع العلامات البارزة أمام المسلمين ، وتبين لهم مواطن القوة ومواطن الضعف، والأسباب التي أدت لكل منهما والأمة التي لا تدرس تاريخها فليس لها حاضر ولا مستقبل [2] .

فالتاريخ الإسلامي تاريخ أصيل حافل بالأمجاد ذو أمثلة ونماذج رائعات في الحضارة الإنسانية .

المصدر الخامس : التراث الإسلامي :ـ

يعدُّ التراث الإسلامي مفخرة عظيمة ، ومنقبة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، ذلك أنه تراث ضخم كبير يدل على حضارة الأمة الإسلامية

١) خواطر وتأملات في السيرة النبوية الشريفة د/ محمود محمد سيد محمد عمارة ص ١١ ، ١٢.

٢) الثقافة والثقافة الإسلامية ص ٥٩ ، ٦٠ ـ سميح عاطف الزين .

وسبقها على الأمم البتة فهو تراث حوى لكل نواحي العلم والمعرفة فلم يقتصر على جانب دون جانب آخر، فقد أخذ بجوانب الحياة المختلفة ، الروحية منها والمادية فلم يطغ جانب على الآخر فيجانب تقدمه في الناحية الروحية، فقد برع في الناحية المادية كذلك والتاريخ يشهد بذلك.

فبجانب علوم التفسير ، و الحديث، والفقه ، واللغة ، والأدب وبلوغ المسلمين فيها الغاية العظمى فقد نبغ في علوم الطب ، والهندسة ، والكيمياء ، والطبيعة ، والإحياء ، وعلوم الفلك ، والجبر والحساب، رجال بلغوا الذروة في هذه العلوم بالنسبة لزمانهم فقد كان العالم في ذلك يغط في الجهل، ويعيش في الظلمات، ويحيا على الخرافات والخزعبلات ، بينما كان العالم الإسلامي والأمة الإسلامية تنشر على العالم أسس الحضارة ، وحقائق العلم والمعرفة بجانب نشرها الهدى والرشاد وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ومن العلماء الذين نبغوا في علوم الحياة المادية : جابر بن حيان، والخوارزمي، وابن الهيثم ، والكاشي ، وابن سينا ، والبيروني ، والخازني ، والرازي ، والكرخي ، وغيرهم كثير لا يعرف الناس عنهم شيئاً ، ولنا أن نقف عند هؤلاء قليلاً لنعلم ونوقن أن الإسلام هو الذي نشر العلم والحضارة في العالم كله وأنه ما كان عقبة في سبيل التقدم البشري.

أما الخوارزمي (ت٢٣٠هـ ـ ٨٤٥م) هو أول من استخدم الأرقام في علم الجبر، استخدم الخوارزمي الأرقام [1] ـ بعد أن وجدها عند الهنود رموزاً مستقلة ولكن بلا فائدة عملية ـ على النحو

١) وكانت عند الهنود رموزاً مستقلة ولكن بلا فائدة عملية .

الذي نستخدمها نحن اليوم واستفاد الخوارزمي فائدة كبيرة من الصفر الذي كان الهنود يسمونه "سونيا" أي خلاء فعرفه في أوجه كثيرة، ولولا الأرقام كما أمكن وضع علم الجبر، لأننا لا نستطيع أن نبني معادلة بحدود مجهولة فقط أي برموز من الأحرف من غير الأرقام مستقلة تدل على أعداد معلومة ، والخوارزمي هو الذي أقام بناء المعادلة ذات الدرجة الثانية [1] على الأسس المتبعة عندنا اليوم .

والخوارزمي أول من قَبِلَ الأعداد السالبة إلى جانب الأعداد الموجبة (+ ٧ ت ١٢) وهو أول من قال إن ضرب عدد سالب بعدد سالب يحصل منه عدد موجب . أما ضرب عددٍ سالب بعدد موجب فالحاصل منه عدد سالب.

وكذلك هو أول من تنبه إلى أن نقل حدّ من جانب في المعادلة إلى الجانب الآخر منها يقتضي تبديل علامته.

وفصل الخوارزمي الجبر من الحساب ومن الهندسة وجعل منه علماً مستقلاً بنفسه ووضع له القواعد وجعله قابلاً للتعليم.

وحل الخوارزمي مسائل الجبر بالهندسة ومسائل الهندسة بالجبر، ولم يكن ذلك من قبل ممكنا ، لأن العلماء قبل الخوارزمي لم يعرفوا وجه استخدام الأرقام.

ولابن سينا (ت٤٢٨هـ – ١٠٣٧م) في الكيمياء ملاحظة هامة هي أن لكل معدن (عنصر) خواص معينة لا يستحيل بعضها إلى بعض ولا هي تتبدل.

وفي الطب أيضاً ذكر ابن سينا (الحصانة) — المناعة في الجسم — وقال : إذا فقد الجسم مناعته بَطَل فعل الدواء في شفائه ، وكان ابن

---

١) وهي أم المعادلات كلها والمعروفة في تاريخ الرياضيات باسم معادلة "الخوارزمي".

سينا يتناول المنشطات لتقوية جسمه ، فلما زادت كمية تلك المنشطات كثيراً ولم تُحدث فيه أثراً ترك المعالجة الطبيعية لمداواة نفسه ، ولما عرض عليه الأطباء أن يداووه لم يقبل ، إذ لم يجد فائدة من المداواة بعد أن فقد الجسم مناعته، ومات ابن سينا بعد ذلك.

وقد عُرف هذا بعده بقرون باسم (إيدز) أي فقدان الجسم لمناعته الطبيعية ، وأول من فرق بين داء الجنب والتهاب الحجاب الحاجز[1] .

وفي علم الطبيعة (الفيزياء) فقد برع ابن الهيثم (٤٣٠هـ – ١٠٣٩م) ولمع لمعاناً واضحاً في هذا العلم فهو موجد علم الضوء (البصريات).

إنه أول من درس البصر وخصائصه وأحواله على أساس من تشريح العين، وله القول العلمي في انعكاس الضوء وخواصه وقواعده، وأبرعُ من ذلك قولُه في انعطاف الضوء أو انكساره، وإبطاء شعاع الضوء في الحالات الكثيفة.

وله قوانين الرؤية عامة ثم قوانين الإبصار الواضح ، وهو أول من تكلم على أخطاء البصر وعللها ، وأول من تكلم على الخزانة السوداء والمظلمة ذات الثقب ودلّ في مصنعه إياها على أن الشبح يظهر على جدارها معكوساً .

وفي الطب : كان أبو بكر الرازي الكبير (ت٣٢١ هـ – ٩٢٤م) طبيباً لامعاً وأول من فرق بين الجدري والحصبة وأشار إلى أعراضهما وانتقالهما بالعدوى وهو أول من استخدم فتيلة الجروح من

---

١) وابن سينا أيضاً أول من عَرَّف العقم الأصيل الذي لا ينجب معه الإنسان أبداً ثم العقم الظاهر الناشئ من فقدان وجه من أوجه الموافقة بين الزوجين فإذا افترق هذان الزوجان ثم تزوج كل واحد منهما زواجاً جديداً موافقاً أنجبا كلاهما.

مصارين الحيوان لأن جسم المريض يمتصها فلا يضطر الطبيب إلى نزعها بعد أن يلتئم الجرح لو كانت من خيوط الحرير أو مما يشبه الحرير.

وقد طبق مبادئ الكيمياء على قوانين المداواة (لأن الدواء المركب لا يتفاعل في الزجاجة ، بل في معدة المريض) ، فإذا لم يتنبه الطبيب إلى هذه الحقيقة ، فإن أذى شديداً يلحق بعدد كبير من مرضاه.

وفي الطب أيضاً يحسن الإشارة إلى ابن النفيس (ت٦٨٦هـ ــ ١٢٨٨م) وقد اهتم بتشريح القلب والحنجرة وبالعروق المتصلة بهما ثم هو مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، أو الجزئية ، بين القلب والرئتين.

وغير ذلك كثير من العلماء الذي يرعو في مجالات العلوم المادية كالطب، والكيمياء ، والفيزياء، والرياضيات (الحساب ــ الجبر، الهندسة ، وحساب المثلثات واللوغارتمات ، مما لا يتسع المقام لذكرها (١) .

وقد اهتم علماء الغرب بهذه العلوم وحرصوا على بحثها وترجمتها واستفادوا منها الكثير في نهضتهم وتقدمهم العلمي والصناعي ولم يهتم المسلمون بالبحث والعناية في العلوم المادية وبرعوا براعة لم يصل إليها أحد في العلوم الروحية مما سبب تأخرهم في التقدم العلمي المادي والذي دعا إليه الإسلام وحض عليه في كثير من آيات القرآن الكريم.

مصدر الثقافة الغربية:ــ

مما سبق يتضح لنا أن الخلاف بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية خلاف أصيل يتعلق بالركائز الأساسية التي تستند إليها الثقافات ، فالثقافة الإسلامية مصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وهما

---

١) انظر تراث العرب العلمي/ قدري طوقان ٤٦٩ إلى ٤٧٣ ، وانظر الثقافة الإسلامية د/ عمر فروخ ص ٢٤ وما بعدها.

أساس الثقافة بما يشتملان عليه من عقيدة وشريعة وأخلاق ، ومعاملات وقيم ومثل وسلوكيات وما يتعلق بهما ، من تاريخ ولغة وآداب.

كما أنهما يرسمان الإطار ويوضحان الخطوط العريضة التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية من علوم ومعارف ونظم وتشريعات.

أما الثقافة الغربية فمصدرها كتابات الفلاسفة وعلماء الغرب.

فهناك إذاً صراع فكري بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية وغيرها، يتمثل في المصدر ، والخصائص ، والتصورات ، وصراع مادي يتمثل في النوعية ، والغاية.

أولاً : المصدر :

أ ــ ثقافتنا الإسلامية

أساسها ومصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وثقافة الغرب نتاج لصراع فكري بين العلماء ورجال الدين خلال ما سمي بعصر النهضة الأوروبية، وكان الحصاد المر لهذا الصراع : " أن الفكر في عصر النهضة الأوربية اتسم بنزعة مادية معادية للسلطة الدينية ، كما اتسم برغبة جامحة في الخلاص بكل طريقة ممكنة من الخضوع للقيادة الفكرية للسلطة الدينية " (١)

فلم يكن أمام علماء الغرب في صراعهم مع رجال الدين (٢) سوى التركيز على الخبرة واستخدام الحواس كأساس للمعرفة ونبذ كل معرفة غير حسية وتوالى علماء الغرب في تعميق هذا الاتجاه المادي

---

١) المنهج العلمي للبحث من وجهة إسلامية : د/ إبراهيم عبد الرحمن رجب ــ بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية ص ١٧.

٢) رجال الدين هذا مصطلح يطلق في المسيحية على رجال الدين المسيحي فقط ، أما في الإسلام فعلماء دين ، وليسوا رجال دين .

وهذا من الأخطاء الشائعة في وسائل الإعلام وغيرها يقولون رجال الدين المسيحي ورجال الدين الإسلامي . وهذا خطأ فادح .

الحسي . ومنهم ـ بيكون ـ ولوك ـ وهيوم ـ أنصار المذهب الوضعي لذا أصبح مصدر ثقافة الغرب هو المادة وكفى .

وبهذه المعادلة البسيطة الآتية يتضح التباين الأساسي بين ثقافتنا وثقافة الغرب .

إنسان + بيئة مادية + إيمان = ثقافة وحضارة إسلامية .

إنسان + بيئة مادية = ثقافة وحضارة غربية معاصرة .

كما يمكن توضيح الفارق بين إنسانيتهما على النحو التالي :

إنسان يعيش لفكرة علوية (عبادة الله وحده) غايته مرضات الله = مسلم .

إنسان يعيش لفكرة ذاتية غايته الاستمتاع والرفاهية المادية = غربي [1] .

وقد شهد الثلث الثاني من هذا القرن مزيداً من تعميق هذا الاتجاه المادي فيما عرف باسم الإمبريقية المنطقية . التي لا ترى معنى لجميع العبارات المتصلة بالقيم الأخلاقية أو الجمالية أو الدينية لأنه لا يمكن التحقق منها عملياً " [2] .

ب ـ وثقافتنا الإسلامية تستمد أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . لقول النبي ﷺ : " تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله ﷺ " [3] فالقرآن الكريم كلام الله عز وجل أنزله على رسوله ﷺ وحيا جليا في حال اليقظة والصحوة ليكون مصدر هداية وإرشاد ومنبع توجيه وتشريع.

والسنة النبوية الشريفة "هي كل ما صدر عن النبي ﷺ ـ غير القرآن الكريم ـ من قول وفعل

١) أساسيات في موضوع الحضارة والإسلام ودور الشباب،محمد فريد عبد الخالق١ ص ٢١.

٢) المنهج العلمي للبحث من وجهة إسلامية ـ مرجع سابق ص ٢٥.

٣) رواه البخاري .

وتقرير" [1] وقد نقلت السنة النبوية نقلاً أميناً دقيقاً ، وبذل علماء الأمة الإسلامية جهداً واضحاً لتوثيق أحاديث الرسول ﷺ وتبرز القيمة الحقيقية للسنة النبوية الشريفة في أنها ترسم للمسلمين الطريق العملي للحياة الإسلامية.

فالقرآن الكريم هو "قانون الإسلام" والسنة النبوية هي تطبيقه. والمسلم مكلف باحترام التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه" [2] .

ج ـ أيضاً : الخلاف بين ثقافتنا الإسلامية وثقافة الغرب خلاف مبدئي يتعلق بالركائز الأساسية التي تستند إليها الثقافة.

فالقرآن والسنة هما أساس الثقافة الإسلامية بما يشتملان عليه من عقيدة وقيم ومثل وأخلاقيات ومعاملات وسلوكيات يمارسها الفرد.

كما أنهما ـ الكتاب والسنة ـ يرسمان الخطوط العريضة التي تبني الحضارة الإسلامية من علم ومعرفة وطرائق ونظم وتشريعات.

أما الثقافة الغربية المعاصرة فمصدرها كتابات الفلاسفة ، فلاسفة الغرب وعلمائه ومفكريه أمثال : هوبز ـ ولوك ، وروسو، وفولتير، وديكارت ، وكانت ، وآدم سميث ، ومل ، وأنشتين وغيرهم ، فأساس الثقافة الغربية مادي ، والأسس التي قامت عليها مادية ، وفي هذا الإطار لم يعد الغرب ينظر إلى القيم ، والفضائل والأخلاق من منظور مثالي رباني ، بل من منظور مادي بحت.

إن خطر الثقافة الغربية على ثقافتنا لا يكمن في أساسها الفكري النظري فحسب وإنما يكمن أيضاً فيما توصل إليه الغرب من علم

١) التربية الإسلامية وتحديات العصر ـ مرجع سابق ص ٢٥١.

٢) فقه السيرة ـ الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ ص ٢٦ ، ٢٧.

وآلات واختراعات وابتكارات وتقنيات، مما جعلها حضارة متفوقة تفرض حضارتها وفكرها وثقافتها على غيرها من الثقافات والحضارات . ليس لأنها ثقافة إنسانية تصلح لخير البشرية عامة. ولكن لأنها تملك أدوات القهر كما تملك أدوات الإنتاج .

والتاريخ يعلمنا عبر القرون أن ثقافة الأمم تقوي بقوة أبنائها ــ حتى وإن كانت غير إنسانية في أهدافها وغايتها وتضعف الثقافة بضعف أبنائها ــ حتى وإن كانت رصينة في بنائها وخيرة في أهدافها ــ وهذا هو الواقع الأليم للأمة الإسلامية ، ثقافة إنسانية ربانية المصدر خيرة نبيلة الهدف والغاية ، لكن أمتها ضعيفة ، فماذا كانت النتيجة ؟ غزو ثقافي غربي صهيوني صليبي يسعى إلى اختراق ثقافتنا ، ومسخ قيمنا ، وتبديل أخلاقنا ، وتحويل عاداتنا وتقاليدنا ، وطمس معالمنا ، هذا ما يحاوله الغرب تسانده الصهيونية العالمية ــ منذ مطلع القرن التاسع عشر مجنداً في ذلك مدارسه التبشرية ، وبعثاته العلمية تارة وجنوده وأساطيله وكل آلة الحرب والدمار تارة أخرى .وأخيراً بأقلامه ، ومؤلفاته ، وصحافته، وإذاعاته وبثه التليفزيوني بهدف محو ثقافتنا والنيل من عقيدتنا الإسلامية وديننا الحنيف.

* * *

المبحث الرابع

ثانياً : خصائص الثقافة الإسلامية

يتميز الإسلام ويتمتع بخصائص ومزايا تجعله متفرداً بين الأديان الأخرى، وقد تأثرت الحضارة الإسلامية بهذه الخصائص مما جعلها هي الأخرى حضارة متفردة بين الحضارات وذلك بمقامت عليه من عقيدة صحيحة، وعبادات سديدة قويمة ، وأخلاق كريمة نبيلة ، وما حوت من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية، وتربوية سليمة ، وما ربط بين أبنائها من صلات وعلاقات، وبما تمسكوا به من قيم وأخلاقيات وهذه الخصائص هي :

١ــ إنها ثقافة إنسانية عامة : تنظر إلى الناس بمقياس واحد، لا تفسده قومية أو عنصرية ، أو جنس أو لون.

ذلك لأن الرابطة التي تربط بين الناس هي العقيدة كما يقرر ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (١) .

ويقرر ذلك التوجيه النبوي الشريف في قوله ﷺ : "سلمان منا أهل البيت ــ لو جاء الأعاجم بعمل وجئتم من غير عمل كانوا أولى بمحمد منكم ــ لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى) (٢) وعلى العكس من ذلك في الثقافة الغربية يقول أحد مفكريها الكبار وهو رينان: " جنس واحد يلد السادة والأبطال هو الجنس الأوربي ، فإذا ما نزلت بهذا الجنس إلى مستوى الحظائر التي يعمل

---

١) سورة الحجرات : آية ١٣.

٢) رواه الطبراني في الأوسط باب من اسمه عبد الرحمن ١٦٥/٥ وأخرجه أحمد في مسنده ٤١١/٥.

فيها الزنوج والصينيون فإنه يثور، فكل ثائر في بلادنا هو بطل لم يتح له ما خلق له ، هو إنسان ينشر حياة البطولة فإذا هو مكلف بأعمال لا تتفق وخصائص جنسه، إن الحياة التي يتمرد عليها عمالنا يسعد بها صيني أو فلاح أو كائن لم يخلق لحياتنا " (١) .

وكان من نتيجة هذه النزعة الإنسانية أن الثقافة الإسلامية استطاعت أن تنتظم عباقرة الأمم جميعاً، فهي تستطيع أن تفاخر بالنوابغ الذين أقاموا صرحها من جميع الشعوب والأمم (٢) .

٢ـ الثقافة الإسلامية قوامها وصمامها الدين الإسلامي : وهو دين شامل كامل فهي أيضاً شاملة كاملة أي إنه منهج للحياة البشرية الواقعية. فهو نظام يشمل التصور الاعتقادي ، الذي يفسر طبيعة الوجود ويحدد مكان الإنسان فيه ، كما يعين غاية الوجود الإنساني وهو أيضاً نظام يشمل الأنظمة الواقعية التي تصدر عن ذلك التصور الاعتقادي، كالنظام الأخلاقي والنظام الاجتماعي، والنظام الاقتصادي، والنظام السياسي وشكله وخصائصه، والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته (٣) .

وخاصية الشمول للثقافة الإسلامية ميزة هامة هيأت لها صموداً كبيراً أمام التحديات الفكرية الأخرى، " فالثقافة الإسلامية لم تكن قوة غالبة في إبان النشأة والظهور وحسب ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين ، ولابد من تفسير لهذه القوة الصامدة كما لابد من تفسير لتلك القوة الغالبة لأنها كما

١) وجهة العالم الإسلامي ص ٢٥ لمالك بن نبي.

٢) انظر معالم الثقافة الإسلامية ص ٨٨ ، ٨٩ د/ عبد الكريم عثمان.

٣) انظر المستقبل لهذا الدين ــ الأستاذ سيد قطب .

يقول العقاد: "تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة في معترك الصراع، والصراع وصمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيب كانتصارها في أحوال الشدة ، ولا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون ...

إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية والاجتماعية هو المزية الخاصة في الثقافة الإسلامية ، وهو المزية التي توحي إلى الإنسان أنه كل شامل فيستريح من خصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين" (١) .

٣ـ ثقافة الحق والعدل : ـ

والثقافة الإسلامية لكونها مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فقد قدمت للناس عبر تاريخها المجيد مبادئ الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة في نماذج بشرية واقعية من الخلفاء والأمراء ، والعلماء والعمال، والأجراء ورجال التجارة والاقتصاد والخاصة والعامة، فكان الخليفة وأمير المؤمنين يقول لرعاياه : " أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم أو يقول لهم : " إن رأيتم في إعوجاجاً فقوموني، وكان الفرد المسلم من عامة الناس يقول للخليفة أو الأمير : " اتق الله" فلا يغضب الخليفة أو الأمير ، بل وصل الأمر إلى تشجيع هذا الاتجاه في توجيه النصح للخليفة أو الحاكم بقوله : " لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها " .

كما أن الثقافة الإسلامية قدمت للناس أحكاماً وآدابا لعلاقة الفرد بأسرته وعلاقته بحكومته، وعلاقة

١) انظر الإسلام في القرن العشرين للعقاد ص ٤٠، ومعالم الثقافة الإسلامية ص ٩٠. د/ عبد الكريم عثمان .

حكومته بـه وبـالمجتمع كلـه، ثم بالحكومات الأخرى.

ومن هنا كانت الثقافة الإسلامية أحكاماً وآداباً إنسانية الروح والسلوك، تهدف إلى إعطاء الحقوق وبذل الواجبات في تعاون وبر وإخاء وتقوى وإحسان (1).

٤ـ ثقافة إيجابية وبناءة تدفع إلى الأمام وإلى التقدم والرقي، فالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة وما احتويا عليه من جوانب مادية وروحية، وما اشتملا عليه من مبادئ وقيم وتوجيهات قد وفرت لهذه الثقافة معيناً لا ينضب من المقومات والأسس التي أصبحت مادة خصبة أضيفت إلى تراث العرب والمسلمين على مر العصور لتشكل في النهاية ثقافة العرب الإسلامية (2).

وهي ثقافة معطاءة فهي مصدر لكل خير، تحدث آثاراً طيبة ملموسة في حياة معتنقيها، فهي تدفع الإنسان إلى العلم والعمل والتخلق بالأخلاق الحسنة، وتغرس في نفسه التعاون والإيثار، وتخرجه من الجمود الفكري وتدفعه إلى التفكير العميق المستنير والتأمل والتدبر كما تدفعه إلى القوة والعزة.

وهذه الثقافة تشعر الإنسان الملتزم بها بضخامة المسئولية وبأهميته في الحياة الدنيا وأنه لم يخلق عبثاً فهو ذلك الإنسان الذي تراه مؤمناً عابداً، عاملاً مفكراً محباً للخير نزاعاً إليه، كارها للشر منفراً منه، يتعاون على

1) انظر : لمحات في الثقافة الإسلامية ص ٧٤ ، ٧٥ ــ عمر عودة الخطيب ، والثقافة العربية ص ٧٠ أنور الجندي ، معالم الثقافة الإسلامية مصدر سابق ص ٦٨.

2) حول الثقافة الإسلامية في المجتمع الإسلامي المعاصر ــ بحث بمجلة الأزهر ١٩٧٧م د/ طه محمد كسبة.

البر والتقوى ، ولا يتعاون على الإثم والعدوان (1) .

٥ـ ثقافة ممتازة مميزة متميزة ــ ثقافة الشخصية المسلمة ــ أي أنها ثقافة متميزة عن غيرها وتميز المسلم عن غيره ، فمن أهم ما قدمته الثقافة الإسلامية، أنها كونت للعرب ، الذين خرج الإسلام من أرضهم، وبلسانهم، وعلى يد رجل منهم سيدنا محمد ــ ﷺ ــ شخصية ممتازة فريدة من نوعها ، لا شرقية ولا غربية، شخصية ذات عقيدة راشدة ، ورسالة ماجدة، وخلق فاضل كريم ، وفكر مستقيم مستنير ، ولما كان هذا الفكر الخاص المتميز باتجاهاته ومجالاته ، هو أساس الشخصية العربية المسلمة.

كان من حق كل مسلم غير عربي أن يمتاز به على الناس جميعاً:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (2) .

ومن أجل ذلك نهى الرسول ــ ﷺ ــ عن تقليد المسلمين لغيرهم من الأمم والتشبه بهم في أخلاقهم وعاداتهم ومن ذلك قوله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ من تشبه بقوم فهو منهم " (3) . " ليس منا من تشبه بغيرنا " (4) وكان ــ ﷺ ــ يصوم من الأيام السبت والأحد ، ويقول: " إنهما يوما عيد لليهود والنصارى وأحب أن أخالفهم" (5) ويقول ــ ﷺ ــ : " تسحروا فإن في السحور بركة ، وإن اليهود والنصارى لا يتسحرون" (6) .

1) لمحات في الثقافة الإسلامية ص ٨٣ عمر عودة الخطيب ، أضواء على الثقافة الإسلامية ص ٣٥ ــ نادية العمري .

2) الأنبياء : آية ٩٢.

3) رواه أبو داود في سننه . ك اللباس باب في لبس الشهرة ٤٣/٤ ح ٤٠٣١

4) رواه الترمذي في سننه . ك الاستئذان ٥٦/٥ ــ ٥٧ ح ٢٦٩٥.

5) رواهما البخاري في صحيحه كتاب : الصوم باب صوم يوم الجمعة ٤/

6) رواهما البخاري في صحيحه كتاب : الصوم باب السحور من غير إيجاب.

إن الاستعمار الغربي على الرغم مما صبه على المسلمين من البطش والتنكيل وما أنزله بهم من ضروب الفتن وما دمر من حكوماتهم، واحتل من أراضيهم ، إلا أن هذه الأعمال الإجرامية كلها لا تساوي ظلماً ارتكبه الاستعمار الغربي حين فرض علينا أنظمته التربوية الحديثة الغربية عن معتقداتنا وتقاليدنا، لقد حاول بهذه الطريقة أن ينشئ أجيالاً تتنكر لشخصيتها الإسلامية، وتبغض دينها وتبصق على تقاليدها، وتنظر إلى تاريخها الحافل بالأمجاد نظرة احتقار وجعلها تقتنع بتفاهة ثقافتها الإسلامية ، وتؤمن بأن نظام حياتهم الفكرية والعملية أصبح بالياً لا يصلح للعصر الحاضر، حتى رسخ في أذهانها وقلوبها أنه إذا كانت هناك معارف هي التي تدون في الغرب، وإذا كانت هناك حضار فهي الحضارة التي أنشأها الغرب، وإذا كانت هناك أخلاق فهي التي يتحلى بها الغرب[1] . وهي تعتبر جريمة كبرى ارتكبها الاستعمار الغربي في إذابة الشخصية الإسلامية وضياعها من نفوس المسلمين وأخلاقهم وأعمالهم[2] .

هذه بعض الخصائص التي تفردت بها الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات لأن مصدرها الوحي الإلهي المعصوم، فهي ثقافة شاملة كاملة متزنة تصنع الفرد المتكامل، وتربي المجتمع السوي المستقيم ، وتنشئ الأمة الإيجابية الخيرة المعتدلة العادلة فهي ثقافة الحق والعدل والخير، والقيم، وهي أيضاً ثقافة العزة والكرامة والإنسانية.

---

١) الأستاذ العلامة أبو الأعلى المودودي — بحث مقدم لمجلة رابطة العالم الإسلامي ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م.

٢) الثقافة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة — د/ عبدالقادر سيد عبد الرؤوف ص ٤١.

لذا كان على المسلم أن يتمسك بثقافته الإسلامية ويحرص عليها حرصه على طعامه وشرابه ، ومسكنه.

* * *

المبحث الخامس
التصورات

التصور الإسلامي عن الكون والإنسان والحياة : —

جاء الإسلام بعقائده ، وعباداته ، ومعاملاته ، وأخلاقه ، فواجه كماً هائلا من العقائد والفلسفات والأساطير والأفكار والأوهام يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة وتحت تأثير هذا الكم، كان الإنسان يتخبط في فساد وانحلال وتعاسة وشقاء، يعيش في هذا التيه الذي لا دليل فيه، ولا هدى ولا نور. ليس لديه تصور صحيح لعقيدة الألوهية، وحقيقة الكون، والحياة، وحقيقة الإنسان، ومركزه في هذا الكون، وغاية الوجود الإنساني ونوع الصلة بينه وبين الله .

ولا يمكن للإنسان أن يعيش في الكون تائهاً بغير عيشة مستقرة فلابد

له من رباط معين بهذا الكون يضمن له الاستقرار فيه. ومعرفة مكانه في هذا الكون الذي يستقر فيه ، وهذا إنما يكون بالعقيدة التي تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله.

وتصرفات الفرد. وتصرفات الجماعة، ونظام الحياة، يخضع كله للعقيدة التي تحكمه، فالحياة كلها منبثقة منها، قائمة عليها.

وحالة الفساد والتشتت والدمار، التي شهدها العالم في الجاهلية قبل الإسلام. إنما كانت نتيجة للعقائد الفاسدة والتصورات الوثنية، والانحرافات الفكرية التي سادت العالم حينذاك.

جاء الإسلام فأخرج البشرية من هذه الأوهام والتصورات الخاطئة الجاهلية. إلى التصور الكامل الصحيح للكون والإنسان والحياة.

١ — التصور الإسلامي للكون : —

ليس هذا الكون وليد الصدفة — كما يقول الطبيعيون أو الدهريون — ولكنه من خلق الله وابداعه . أراده الله سبحانه وتعالى فكان وليس لشئ ولا لحي في هذا الكون أثارة من أمر الخلق ولا التدبير ولا الهيمنة. ولا مشاركة في شئ من خصائص الألوهية بحال.

إن الله وحده هو الذي خلق كل ذرة في الكون. وإرادته نافذة فيه وقد قدره تقدير حكيم عليم وأبدعه إبداعاً حسناً . وهو الذي يسيره بمشيئته وقدرته وكل عالم من العوالم له . وظائفه التي يؤديها . وناموسه الذي ينظم أمره ويضبط سيره ويحكم نظامه ومرد كل شيء في هذا الكون إلى الله .

فالكائنات كلها خاضعة لإرادته وتدبيره وهيمنته وسلطانه والقرآن

الكريم يؤكد هذا في آيات كثيرة والفطرة شاهدة عليه ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١)، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (٢) ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (٣) ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (٤) ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٥).

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦)

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٧).

فالحياة والموت والرزق وتصريف الرياح والسحاب ونزول المطر وحركة الأفلاك ونمو المخلوقات . كل هذا وأمثاله خاضع لإرادة الله وقدرته . وبين أجزاء هذا الكون تناسق عجيب . في ذراته وفي أفراده وفي عوالمه . قدر الله كل شيء فيه

---

١) سورة القمر : آية ٤٩.
٢) سورة الفرقان : آية ٢.
٣) سورة الرعد : آية ٨.
٤) سورة طه : آية ٥٠.
٥) سورة النحل : آية ٤٠.
٦) سورة الأعراف : آية ٥٤.
٧) سورة يس : الآيات ٣٧ — ٤٠.

. قدر حجمه وشكله وقدر وظيفته وعمله وقدر زمانه ومكانه . وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

إن تركيب هذا الكون . وتركيب كل شيء فيه . لما يدعو إلي الدهشة حقاً. وينفي فكرة المصادفة نفياً باتاً . وأن الكون لم يخلق عبثاً دون غاية أو هدف. ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره في جانب واحد من جوانب هذا الكون .

وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته . ازداد الإيمان بوجود خالق مدبر خلق كل شيء فقدره تقديراً .

يقول "كريس موريسون" رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك . في كتابة "العلم يدعو إلي الإيمان" تحت عنوان "الإنسان لا يقوم وحده" ... يقول :

ومما يدعو إلي الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة علي هذا الشكل بالغاً هذه الدقة الفائقة . لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام . لامتص ثاني أوكسيد الكربون الأوكسجين . ولما أمكن وجود حياة للنبات .

ولو كان الهواء أرفع كثير مما هو . فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي . كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية . وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت العاقبة مروعة .

إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير

الكيميائي التي يحتاج إليها الزرع، والتي تقتل الجراثيم . وتنتج الفيتامينات دون أن تضر بالإنسان. مما يدل على أن هذا العالم لا يمكن أن يكون قد وجد هكذا بالطبيعة أو بالصدفة.

وهكذا لو استقصينا جزئيات هذا الكون لوجدنا كل شيء فيه يشهد بخالق واحد مبدع مدبر لهذا الكون .

٢ – الإنسان في التصور الإسلامي [١] .

الإنسان في نظر الإسلام أفضل المخلوقات علي الإطلاق لما أودعه الله فيه من مزايا وميزه من صفات ، ولما أعده من جليل الغايات التي لا تصل إليها سائر المخلوقات الأخرى . مخلوق كريم علي الله أكرمه بالخلق ، وفضله بالعقل وميزه بالتكليف وتحمل الأمانه . خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله خليفة في الأرض وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فكل ما في الكون له وخدمته .

قال الله تعالي : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[٢] .

وذلك لأنه تعالي أعد الإنسان للخلافة في الأرض وإعمار الكون بالخير والحق، والعمل الصالح .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[٣]

وقد تحدث القرآن الكريم عن مكانة الإنسان في الوجود ومنزلته عند الله

---

١) الخصائص العامة للإسلام د/ يوسف القرضاوي ص ٧٣ وما بعدها بتصرف بسيط ص ١٠ مؤسسة الرسالة.

٢) سورة الإسراء : آية ٧٠.

٣) سورة البقرة : آية ٣٠.

وفي الملأ الأعلي من الملائكة ، وبين أن للإنسان مكانه من الله، ومكانه من الملائكة، ومكانه من هذا الوجود الذي يعيش فيه .

أ — مكانة الإنسان عند الله .

وضح القرآن الكريم في كثير من آياته وسوره مكانة الإنسان من الله وقربه منه . ذلك القرب الذي حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان . الذين جعلوا من أنفسهم رحمة الله الواسعة والله يعلم إنهم لكاذبون .

قال تعالي ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١)

ويقول تعالي : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

ويقول تعالي : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٣)

ويقول تعالي : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (٤)

ويؤكد الرسول صلي الله عليه وسلم هذا المعني في حديثه عن ربه [أنا عند حسن ظن عبدي بي . وأنا معه إذا ذكرني . إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي . وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منه وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً . وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً . وإن أتاني يمشي أتيته هرولة] (٥)

---

١) سورة البقرة : آية ١٨٦.

٢) سورة البقرة : آية ١١٥.

٣) سورة ق : آية ١٦.

٤) سورة المجادلة : آية ٧.

٥) صحيح مسلم — كتاب الإيمان .

هذه مكانة الإنسان عند الله . مكانة قرب ودنو ومكانة سمو وعلو، ومكنة تكريم وتشريف .

ب — مكانة الإنسان في الملإ الأعلى :

أما مكانتة الإنسان في الملإ الأعلى — هناك في العوالم الروحية العلوية — فهي مكانة اشرأبت إليها أعناق الملائكة المقربين. وتطاولت إليها نفوسهم فما أوتوها. فإن الذي اختار الله له هذه المكانة — وهي الخلافة في الأرض — هو الإنسان ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

وقد أراد الله أن يكرم هذا النوع ويحتفي به . ويظهر مكانه في تلك العوالم الروحية — فأمر الملائكة أن يؤدي التحية لهذا الكائن الجديد وتستقبله بانحناءة إجلال وإكبار ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٢) .

لقد تمرد إبليس علي أمر ربه بالتحية لهذا الإنسان، ودفعه الحسد والغرور أن أبي واستكبر وكان من الكافرين. واتخذ من الإنسان موقف التحدي والعداء . فماذا كانت عاقبة هذا العدو المبين. كانت كما ذكر القرآن ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٣)

---

١) سورة البقرة : آية ٣٠.

٢) سورة ص : من الآية ٧١ : ٧٤.

٣) سورة ص : من الآية ٧٧ : ٧٨.

ج – مكانة الإنسان في هذا العالم المادي.

أما مركز الإنسان في هذا الكون المادي العريض. فهو مركز السيد المتصرف. الذي سخر كل ما في هذا العلم لنفعه وإصلاح أمره. وكان كل شيء في هذا الكون قد نسج من أجله وفصل له تفصيلاً.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ (٣٣) وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ (١).

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ (٢).

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٣).

تلك هي مكانة الإنسان في هذا الكون وصلته بما فيه.

إن الإنسان بالنسبة لسعة الكون شيء ضئيل من حيث الحجم وضآلة الجسم، ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوي شيء كبير وإن الإنسان من حيث عمره القصير علي الأرض ذرة في صحراء الأزمنة الجيولوجية الضاربة في أغوار القدم.

---

١) سورة إبراهيم : آيات ٣٢ – ٣٤.

٢) سورة الجاثية : آية ١٢ – ١٣.

٣) سورة لقمان : آية ٢٠.

فما الذي بوأ الإنسان هذه المكانة العالية وفي الكون أجرام أضخم منه وأكبر؟

إنه سر القبس الذي هو فيه من نور الله. والنفخة التي هي فيه من روح الله. تلك النفخة التي جعلته مستعداً للخلافة في الأرض. مستعداً لحمل الأمانة الكبرى: أمانة التكليف والمسئولية، تلك التي صورها القرآن تصويراً أدبياً رائعاً حين قال: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ (١).

هذا الاستعداد في الإنسان. هو الذي جعل مصيره بيده. بعد أن يسر الله له سبل الهداية. وأزاح عنه كل الأعذار

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) ﴾ (٢).

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٣) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا (١٠) ﴾ (٤) ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (٥).

لقد سما الإسلام بالإنسان فاعترف به كله. روحه وجسده عقله وقلبه. إرادته ووجدانه. غرائزه الهابطة وأشواقه الصاعدة. لم يضع في عنقه غلاً، ولا في رجله قيداً ولم يحرم عليه طيباً، ولم يغلق في وجهه باب خير، ولم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به، ويبيعون له الجنة والنار.

---

١) سورة الأحزاب : آية ٧٢.

٢) سورة القيامة : آية ١٤.

٣) سورة الكهف : جزء من آية ٢٩.

٤) سورة الشمس : آية ٩ – ١٠.

٥) سورة الإسراء : آية ٧.

بل خاطبة خطابا مباشراً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [1] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ ﴾ [2] .

٣ ـ التصور الإسلامي للحياة : ـ

للإسلام تصوره ونظرته الخاصة إلي الوجود والحياة هذا التصور المستقل الشامل ـ للكون ـ والإنسان والحياة ـ يختلف عن سائر التصورات الأخري قديمة كانت أو حديثة .

فالتصور الإسلامي يقدم نظرة عامة عن جميع عناصر الوجود ـ حقيقة الألوهية ـ حقيقة الكون ـ حقيقة الإنسان ـ التي يجب علي الإنسان معرفتها وهذه المعرفة ضرورية لكل مسلم كيما يدرك طبيعة هذا الوجود وحقائقه ، ويتفهم جميع المبادئ والأنظمة من حوله.

إذ عن طريق هذا الإدراك وحده يستطيع المسلم أن يحدد مركزه في هذا الوجود ويستطيع بالتالي أن يتكيف معه ويتعامل .

إن الحياة في نظر الإسلام هي استثمار ما أودعه الله في الكائنات من طاقات استثماراً صالحاً وتوجيه ألوان النشاط البشري فيها لاستخدام تلك الطاقات فن عمارة الأرض بالهدي والبر وفق دين الله .

وبهذا يتحقق التناسق بين الكائنات كلها في خضوعها لله وانقيادها التام له .

ومن ثم ينبغي أن تقوم هذه الحياة في مجالاتها المختلفة علي أسس حتى تكون هذه الحياة حياة إسلامية حقة وصرفة .

١) سورة الانفطار : ٦ ـ ٨.

٢) سورة الانشقاق : آية ٦.

هذه الأسس هي :

١ ـ ينبغي أن تقوم هذه الحياة في مجالاتها المختلفة علي أساس من التصور الصحيح للعقيدة الإسلامية الصحيحة هذا التصور الذي يستقي فيه الإنسان من وحي الله الذي هو منهج تلك الحياة.

فلا يعمل فيها بفكره المجرد .

وهذه هي وظيفة الرسل فيما حملوه للبشرية من دين الله . وكانوا أمناء عليه في التبليغ . ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣ ﴾ [1] .

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [2] .

٢ ـ كل شأن من شئون الحياة ينبغي أن يكون وفق دين الله في شئون الأسرة، وشئون الاجتماع، في الاقتصاد والسياسة ونظام الحكم، في التشريعات الجنائية، والتشريعات المدنية، والإدارية ، في السلم والحرب في المطعم والمشرب والملبس في وظائف الحياة الفردية للرجل ووظائف الحياة الفردية للمرأة . أن تكون الحياة إسلامية كاملة في كل حركة وسكون .

٣ ـ ينبغي أن تنتظم هذه الحياة علي مبادئ ثابته يتحاكم إليها الناس، حتى نضمن للحياة الإسلامية نموها وازدهارها وسعادتها، ولا تعبث بها أهواؤهم وشهواتهم ونزواتهم ﴿ وَأَنَّ

١) سورة الشورى : آية ٥٢ ـ ٥٣.

٢) سورة المائدة : آية ٦٧.

هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [1] .

وهذا هو الذي يحقق للنفس طمأنينتها ، وراحة ضميرها وللجميع استقراره وأمنه، ويجعل الحياة فكراً وتصوراً وواقعاً ونظاماً تتحرك بحريه ومرونة واستجابة لكل تطور صحيح علي أسس الإسلام الثابتة، وفي إطا مبادئه القويمة .

وحين فقدت الحياة القيم الثابتة ولم تتقيد حركتها بإطارها . تخبطت البشرية في تصوراتها وأنظمتها وأوضاعها وتقاليدها وعاداتها تخبطاً منكراً وشنيعاً .

ذلك لأن فكرة الحرية المطلقة باسم التطور المطلق لكل الأوضاع وكل القيم . بلا ضوابط ولا حدود يقود البشرية إلي متاهة باسم التطور والانطلاق والتجديد .

والحياة في نظر الإسلام مرحلة تشبه المرحلة الدراسية حركة وعمل ونشاط وجد واكتساب ، ولها زمنها المحدود بنهايتها، فمن أراد أن يستفيد منها أخذ بنصيبه وحظه . ومن لم يرد خاب وخسر . ونهاية المطاف في الدار الآخرة حيث توفي كل نفس ما كسبت .

تلك هي نظرة الإسلام إلي الكون والإنسان والحياة أما في الثقافات الأخرى فتصورهم ونظرهم للكون والإنسان والحيوة فمختلفة عن التصور الإسلامي إذ هم ينظرون إلي الكون أنه وليد الصدفة ووجد هكذا بالطبيعة والعوامل الطبيعية .

وينظرون إلي الإنسان علي أنه قبضة من تراب هذه الأرض. من الأرض نشأ وعلي الأرض يمشي ومن الأرض يأكل وإلي الأرض يعود . هو كائن ليس له أهمية ولا امتياز علي غيره إنه أحد هذه الأحياء الكثيرة

١) سورة الأنعام : آية ١٥٣.

المتنوعة علي هذه الأرض بل هو من جنس هذه الهوام والحشرات والزواحف والقرود غاية أمره أنه تصور بمرور الزمن فأصبح هذا الإنسان وهم ينظرون إلي الحياة علي أنها هي الغاية واليها المنتهي وليس هناك حياة أخري بعد هذه الحياة فهم يعملون لها ويعيشون من أجلها فالحياة الدنيا هي أكبر همهم ومبلغ علمهم ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [1] فهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة ولا باليوم الآخر لذلك تركوا العنان للنفس والشهوة والهوى بلا قيود ولا حدود.

* * *

١) سورة الجاثية : آية رقم (٢٤).

المبحث السادس

نوعية الحياة في الإسلام

إن نوعية الحياة في أي مجتمع تتحدد بنوعية أفراده وكيفية إعدادهم .

لذلك عمل الإسلام منذ البداية علي تكوين الفرد المسلم تكوينا — صالحا طيبا — من شأنه أن يتحمل مسئوليته تجاه نفسه، وتجاه دينه ، وتجاه مجتمعه — منذ الصغر — فعمد إلي ربط الحياة بالدين، وجعل الحياة متصلة كل الاتصال بالدين وليست منفصلة عنه أو جزءاً منه .

لذلك كان أول توجيه للفرد وهو طفل . أمره بالصلاة لربطه واتصاله بالله عز وجل ، وتربية الوازع الديني وتقوية الإحساس بالمراقبة لله سبحانه وتعالي في كل حركات الإنسان وسكناته، ومن الصلاة يتعلم الأدب والمحافظة علي المواعيد، ويتعود علي النظام وضبط

السلوك، الصلاة إحساس بالمساواة، وشعور بالأمن والاستقرار وكل ذلك يؤدي ويدفع إلي تهيئة المناخ الصالح للإنتاج والعمل وأداء الحقوق والواجبات في الحياة، ويعطي للإنسان تأمين الحرية في كل ما يتعلق به من التفكير والتعبير والتملك وغيرها من الحريات التي كفلها الإسلام وجعلها مقيدة بقيود داخلية من الوازع الديني (الضمير) والإحساس بالمسئولية، وخارجية بسلطان الشرع. لذا اهتم الإسلام بتربية الفرد المسلم تربية إسلامية متكاملة.

يقول النبي صلي الله عليه وسلم:

"مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع" [1]

١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة باب متى يؤمر الغلام ١/١٣٠ح ٤٩٥ عن عمرو بن شعيب.

وفي حديث آخر يقول النبي صلي الله عليه وسلم : "الغلام يُعَقُّ عنه [2] يوم السابع، ويُسمي [3] ، ويماط عنه الأذي [4] ، فإذا بلغ ستَّ سنين أدِّب [5] فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشة . فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب علي الصلاة والصوم . فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه، ثم أخذ بيده وقال (له): قد أدبتك ، وعلمتك وأنكحتك ، أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا، وعذابك في الآخرة" [6] .

٢) يُعَقُّ عنه : تذبح له شاة في اليوم السابع من ولادته ، وتُسمَّى الشاة عقيقة.

٣) يسميه أبوه :أي بأحب الأسماء وأحسنها.

٤) يماط عنه الأذى : يبعد عنه الأذى .

٥) رُبى وهذب وعلم .

٦) إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الحسيني الزبيدي ـ المجلد السادس ص ٣١٧ ط دار إحياء التراث ـ بيروت . وعزاه إلى أبي الشيخ في كتاب الضحايا والعقيقة ، ولم أقف عليه ، والظاهر أنه مخطوط .

وفي الأثر : داعب ابنك سبعاً ، وأدبه سبعاً، وصاحبه سبعاً ثم اترك حبله علي غاربة .

وهكذا فالإسلام يهتم بتربيه الفرد تربيه سليمة جسميا وخلقياً، وتعويده علي أحسن العادات ،وأكرم الأخلاق وأجمل النظم، وحث علي العناية بصحة الطفل ونمو جسمه وتغذيته تغذية صحَّيه ، وتعليمه أدب الحديث، وأدب السؤال ، وأدب الجلوس ، وآداب الطعام والشراب وأدب السير والنوم ، وفي كل ما يتعلق بالطفل في كل نواحي الحياة وجوانبها المختلفة، ولاحظ الطفل في كل مراحل عمره المختلفة (الأسرة)، ولم يكتف بذلك بل حرص الإسلام علي تنقية البيئة المحيطة بالطفل، والعناية باختيار التربة التي ينمو فيها الطفل ويتربى ، وهي الأسرة .

فالأسرة : هي الصورة المثلي للحياة المستقرة، التي تلبي رغائب الإنسان وتفي بحاجاته، وهي الوضع الفطري الذي ارتضاه الله لحياة البشر منذ فجر الخليقة، ودعا الناس إلي أن يعيشوا في ظلالها، لتستقر بهم الحياة، وتتهيأ لهم أسباب الطمأنينة والاستقرار.

قال تعالي : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [1] .

وقال تعالي : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [2] .

وقال عز وجل : "والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات..." [3] . كما أن الزواج

١) سورة الرعد : آية ٣٨. وانظر نظام الأسرة في الإسلام د/ مصطفى عبد الواحد ص ١٢ ، ١٣.

٢) سورة الروم : آية ٢١.

٣) سورة النحل : آية ٢٨.

هو سنة الأنبياء والرسل وقد رفض النبي صلي الله عليه وسلم التبتل وترك الزواج والرغبة عنه: قال صلي الله عليه وسلم في الحديث الطويل : "...وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني" (١) .

والأسرة في حقيقتها وعاء للمعاني الإنسانية والمثل العليا والصفات النبيلة، والإسلام يرجع البشرية في نطاقها الواسع الكبير إلي التعاطف والتراحم والتواصل ، وقيام المجتمعات الإنسانية علي أسس من التعارف والتوادد وذكرهم بأنهم في الأصل أسرة صغيرة ثم اتسع نطاقها وكثر تفريعها، وانتشر.

قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (٢) .

وقال تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (٣) .

ولم يكتف الإسلام بذلك بل وضع لقيام الأسرة ضوابط وأصول وشرط لها شروطا لتقوم علي أسس قوية ودعائم ثابتة من الدين ولينشأ الأولاد في ظل من الأمن والطمأنينة والاستقرار . وليس المجال ذكر وتفصيل وسنبين ذلك بمشيئة الله عند الكلام علي النظام الاجتماعي في الإسلام كما حدد الإسلام القواعد التشريعية المتعلقة بالنواحي الاقتصادية اللازمة للإنسان من جهة التملك والعمل والإنتاج والاستهلاك وأوضح الأسس العقائدية التي يقوم عليها النظام الاقتصادي في الإسلام،

١) رواه البخاري ك النكاح باب الترغيب في النكاح ج٧ ص ٥ ط دار القلم بيروت.

٢) سورة النساء : آية ١.

٣) سورة الحجرات : آية ١٣.

والتي بين أن الإنسان مستخلف من الله في الأرض لتعميرها، واستثمار خيراتها .

قال تعالي : "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...." (١) .

وقال عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (٢) .

ويقول الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم "إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء" (٣) .

كما بين الإسلام إلي أن كل في الأرض والكون مسخر للإنسان ليتمكن من تحقيق أهداف هذا الاستخلاف .

قال تعالي : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٤) .

وقال جل شأنه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٥) .

وهذا التسخير يقتضي عمل الإنسان والانتفاع بما خلق الله عز وجل في الكون واستثماره لخير الإنسان ونفعه وسعادة البشرية من خلال العمل وزيادة الإنتاج ووفرة المتطلبات ، قال تعالي :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٦) .

١) سورة البقرة : آية

٢) سورة الأنعام : آية ١٦٥.

٣) رواه ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري ــ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ج٢ ص ١٤٢٥ ط دار الحديث القاهرة.

٤) سورة لقمان : آية ٢٠.

٥) سورة الجاثية : آية ١٣.

٦) سورة الملك : آية ١٥.

ويقول عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [١] .

ثم إن الإسلام لم يقتصر ــ كما فعلت الأديان الأخرى ــ علي النصائح الأخلاقية في المجال الاقتصادي ، وإنما دعم ذلك بقواعد وضوابط شرعية تحكم العلاقات المالية والاقتصادية ، وتحدد حقوق الأفراد والمجتمع وتنظم المعاملات التجارية والاقتصادية ، وذلك بتحريم الربا ، والأمر بالوفاء بالعهود والعقود وإيتاء الزكاة، والنهي عن اكتناز المال ، واحتكار الأشياء .

قال تعالي : "وأحل الله البيع وحرم الربا..." [٢] .

وقال عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ [٣] .

وقال سبحانه وتعالي : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [٤] .

وقال جل شأنه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [٥] .

كما قدم الإسلام وعقيدته الإسلامية قواعد النظام السياسي بعضها يتعلق ببناء الدولة ، وبعضها يتعلق بنظام الحكم. والآخر يتعلق بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين الإسلام أن كلاً من الحاكم والمحكوم مقيد بأحكام تشريعية، وضوابط إلهية جاءت في القرآن الكريم ووضحتها السنة النبوية الشريفة، كما تعلق أيضاً بالشوري وترك هذا المبدأ للناس

١) سورة البقرة : آية ١٧٢.

٢) سورة البقرة : آية ٧٥ .

٣) سورة المائدة : آية ١.

٤) سورة النور : آية ٥٦.

٥) سورة التوبة : آية ٣٤.

ينفذونه بالطريقة والأسلوب التي تتلائم وتتوافق مع ظروف الزمان والمكان .

كما قرر فقهاء المسلمين من أهل السنة أن الأمة قوامة علي الحاكم ورقيبة علية ، كما أن لها حق اختياره بواسطة أهل الحل والعقد فيها، ومبايعته علي إقامة العدل والنهي عن الظلم وحماية الضعفاء وكفاية العاجزين والمحتاجين، وطاعته واجبة طالما التزم بالإسلام ووجب خلعه إذا أخل بذلك [١] .

هذه هي الحياة في الإسلام وكما يصورها القرآن الكريم والسنة النبوية محكومة بضوابط وروابط شرعية حددها الشرع وأمر بها الإسلام.

في كل جوانب الحياة وفي كل نواحيها المختلفة .

وفي ظل الإسلام وتشريعاته عاشت البشر قرونا تنعم بالحرية والمساواة وتسعد بالأمن والأمان والطمأنينة والاستقرار .

أما الحياة الأسرية ونوعيتها في المجتمعات الغربية وغير الإسلامية وما يتعلق بها من كل جوانب الحياة فتخضع جميعها إلي قواعد ومبادئ وتقنينات الفكر المادي البحت، وما أفرزه ذلك الفكر من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية.

وشتان بين تشريعات إلهية ربانية ــ منزه عن النقص وبعيدة عن الهوي والفرض ــ وبين تشريعات بشرية تخضع كلها للهوي والفرض وتخضع للرأي والتنقية .

فالخلاف ــ بين نوعية الحياة في الإسلام ، ونوعية الحياة الغربية الأوربية ــ خلاف واضح في كل مجالات الحياة .

ويوم أن ترك المسلمون دينهم وعقيدتهم في التشريع الإلهي وركنوا إلي التشريع البشري أصابهم ما

١) انظر : النظريات السياسية ص ٢٩٤ د/ ضياء الدين الريس .

أصابهم من الشقاء والفقر والجهل وظنوا أن البلاد الأوربية بتركهم للدين تقدموا ونهضوا ، وليتهم دروا وعلموا أن التقدم والرقي والنهضة ليست في الوسائل والمظاهر الخارجية — ولكن التقدم الحقيقي والرقي هو الذي يضمن للإنسان السعادة والراحة وهدوء البال ويوفر له الأمن والأمان والاطمئنان فهل ما تعيشه البشرية اليوم مع تقدمها ورقيها وتطورها وفر لها ذلك وشعرت أنها يزداد يوما بعد يوم شقاء وتعاسة، ويعمها القلق والتوتر، وتحيا في عذاب نفسي وجسدي فأين هذا التقدم وأين هذا الرقي ؟

وستظل البشرية عامة والمسلمون خاصة في تعاسة وشقاء ما لم يرجعوا إلي تشريعات الخالق، وتقنينات البارئ سبحانه وتعالي. ويربطوا الحياة بالدين والدين بالحياة.

غاية الحياة في الثقافة الإسلامية : —

لا شك بأن الحياة وغايتهما في الثقافة الإسلامية تختلف كل الاختلاف عن الثقافات الغربية الأوربية فالإسلام قد بين للمسلم وأوضح له منذ النشأة من أين وجد، وما مهمته في الحياة، وما الغاية التي ينتهي إليها الإنسان.

وكذلك فالمسلم طريقة واضح فهو يعلم غايته ويعمل لها وقد حددها الإسلام في قول الحق سبحانه وتعالي في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾[1].

فغاية المسلم طاعته وعبادته والإخلاص له والصدق معه.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ

١) سورة الذاريات : آية ٥٦.

وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1]

ويعلم الهدف من خلقه وهو عبادة الله وحده ، والعبادة في الإسلام تشمل حركة الحياة كلها، وتتناول حياة المسلم في شئونه كلها، وتحدد سلوكه وعلاقاته وفق منهج الله .

فهي تشمل أركان الإسلام وشرائعه، ،ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوة قرآن ودعاء ، واستغفار ، وتسبيح ، وتهليل وتكبير، وتحميد .

وتشمل صلة الإنسان بأخيه الإنسان . وما ينبغي أن تكون معاملته معه وفاء وبرا وإحسانا وحرمة مصدقا وأمانة .

وتشمل داخل الإنسان وباطنه : من عمل القلب كالخشية من الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، وتشمل القيام على حراسة الدين، ومجاهدة أعدائه أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ومحاربة الكفار والمنافقين فعبادة الله بهذا المعني تسع الحياة كلها، وتنتظم أمورها قاطبة، من السعي للكسب، وأدب الأكل والشرب إلي بناء الدولة ، وسياسة الحكم .

فالإسلام يرسم للإنسان عمله في الحياة ويوضح له الغاية المنشودة من عمله وهو مرضاة الله عز وجل :

قال تعالي : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[2]

وأمره في سبيل ذلك أن يتخذ كل أسباب القوة وكل ما يحقق له ذلك الهدف المنشود والغاية المبتغاة من وراء ذلك .

قال تعالي : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن

١) سورة الأنعام : آية ١٦٣.

٢) سورة المائدة : آية ٢.

رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [1].

وقد وجه الإسلام المسلم إلي التمتع بكل ما خلقه الله في حدود الشرع وفي حدود ما أمر به الإسلام . قال تعالي : "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعبادة والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون" [2] وحذر الإسلام أن تتحول وسائل الحياة إلي غايات فيقع فريسة يقف عندها ويجعلها غاية في حد ذاتها فيقع في الشرك ، وكذلك غاية الدولة الإسلامية هي تطبيق شرع الله ونشر دعوة الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد في الأرض .

قال تعالي : " الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور" [3] هذه هي الغاية للفرد والمجتمع والأمة في الإسلام [4].

أما الثقافة الغربية : فالغاية المتوخاة، والمبتغاة: هي الإشباع المادي من خلال مزيد من الإنتاج لمزيد من الربح لمزيد من المال والمتعة ومن خلال مزيد من العلم لمزيد من السيطرة لمزيد من النفوذ علي الآخرين لاستعبادهم وليظل الغربيون محتفظين بمتعهم وثرائهم ، لذا فإن سلطان المال والمادة هو المحرك لكل شيء في الغرب للفكر وللسياسة وللعلاقات بين الأفراد والجماعات وما نسميه اليوم وما تتحدث به

---

١) سورة الأنفال : آية ٦٠.

٢) سورة الأعراف : آيتان ٣١ ، ٣٢.

٣) سورة الحج : آية

٤) انظر الخصائص العامة للإسلام د/ يوسف القرضاوي ص ١٠٨ وما بعدها .بتصرف ، خصائص التصور الإسلامي للمرحوم سيد قطب ص ٨٣ وما بعدها.

وسائل الإعلام المحلية والعالمية الغربية من فرض نظام عالمي جديد فالمقصود منه وكل ما فيه هو العمل بسرعة أكبر علي فرض ثقافته وفكره ونمط حياته الغربية وهيمنته علي الآخرين، ودفعهم بقوة ليسيروا في اتجاه يجعلهم أكثر اعتماداً علي الغرب ، وأكثر طلباً لسلعة فتدور عجلة الإنتاج لديه بسرعة أكبر ليحقق أرباحاً أكثر ومزيداً من المتع المادية، وبالتالي فلا جديد في النظام العالمي الجديد يمكن أن يصيب البلاد الإسلامية بخير، أو يمكن أن تستفيد من ورائه بطائل. لسبب بسيط هو أن هذا النظام العالمي الغربي الجديد يدور في إطار الفكر المادي لغربي لذا فإن غايته لن تختلف عما كانت عليه — وهي الإشباع المادي من خلال مزيد من الإنتاج لمزيد من الربح لمزيد من المال والمتعة — وقد تختلف وسائله عن ذي قبل لتكون أكثر جدوى في تحقيق غايته . وهذا هو الجديد في الأمر .

ومما تقدم يتضح لنا بكل جلاء أنه لا يمكن تلاقي الثقافات مطلقاً ولا يمكن أن تتقابل أو تتحد الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية بأي حال وذلك لاختلاف المصدر والخصائص ، والتصورات ، والنوعية ، والغاية والذي سبق الكلام عنهم.

* * *

الفصل السابع
التحديات التي تواجه الثقافة الإسلامية

الثقافة الإسلامية منذ أن بزغ نورها وهي تواجه تحديات ، وتقابل صعوبات وعقبات حاول ذلك المشركون والكفار في مكة المكرمة للقضاء عليها أول أمرها وفي مهدها ، حاولوا ذلك بمفردهم فما استطاعوا ، وحاولوا تحقيق ذلك بالتحالف مع اليهود في المدينة فما فلحوا .

وبانتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، ودخول الناس فيه أفواجاً، وازدياد رقعته وشوكته قوة ونفوذاً زاد أعداؤه ، وبدأوا يناوؤن العداوة والبغضاء ويدبرون له المكائد والمؤامرات .

فواجه الإسلام وثقافته علي مر السنين والدهور أعوام شتي، واجه الفرس ، والروم، وواجه التتار والصليبين مع الصهيونية العالمية ، ثم بلغت التحديات للثقافة الإسلامية ذروتها في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولي بانتهاء الخلافة الإسلامية ووقوع غالبية المجتمعات الإسلامية تحت وطأة الاحتلال الأورباوي وسيطرته واليوم تقف الأمة الإسلامية في أدني مرتبة حضارية قياساً إلي تلك الأمم الغربية، وتعيش صراعاً مراً بين الأمم . لمالها من حضارة وثقافة وتاريخ ، ولمالها من دور وما تحمل من رسالة بين الأمم . خصها الله بها فلم تتعرض أي أمة من الأمم إلي محن وإحن كتلك التي خيلت بها الأمة الإسلامية منذ أن حملت رسالة الإسلام إلي العالم ومازالت المحن تزداد والإحن تشتد وبخاصة في هذا العصر، حيث هزم المسلمون وأضحي الإسلام في موقف لم يسبق له مثيل فالمسلمون يحاصرون في كل مكان، والحروب الدائرة اليوم

الإسلام طرف فيها ، واستبيح دم المسلمين ، واجبر كثير منهم بمختلف الطرق والوسائل علي ترك عقيدتهم واعتناق معتقدات ومذاهب أخري سواء بالترغيب أن بالترهيب . وما زال الأعداء وعملاء الأعداء في الداخل والخارج يسعون إلي محو الثقافة الإسلامية وطمس معالمها وتغيير هوية المسلمين وإبعادهم عن تاريخهم وحضارتهم ، وإخراجهم من دينهم وعقيدتهم .

إن الناظر إلي البلاد الإسلامية والمتأمل في ثقافتها يكشف عن مدي بعدها بدرجات متفاوتة عن مقومات الثقافة الإسلامية الأصيلة، فالبلاد الإسلامية المتمسكة بثقافتها الإسلامية لا يوجد فيها إلا قلة شبه متمسكة قولاً وفعلاً بثقافة الإسلام، ومع ذلك فإنها تتعرض — هي الأخرى — لطوفان الثقافة الغربية الذي يدعو إلي العلمانية، ويرفع شعار لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين[1]

وبوجه عام يمكن القول إن الثقافة الإسلامية تشكو في أزمة حقيقية يتمثل أحد جوانبها في ضعف أصاب الأمة في ذاتها

ويتمثل الجانب الثاني في غزو ثقافي من حضارة الغرب المتفوقة علمياً وتكنولوجياً واقتصادياً وعسكرياً .

وقد اتخذ الغرب لهذا الغزو أساليب، ووسائل، وسبلاً مبتغياً محاولة تشويه واختراق الثقافة الإسلامية، والنيل منها بقصد السيطرة وبسط النفوذ، ونشر ثقافته الغربية.

ولهذا الغزو طريقان : —

الأول : التنصير : وهو الدعوة إلي الديانة النصرانية بكل طوائفها . [الكاثوليك ، الأرثوذكس ، والبروتستانت] .

---

١) انظر : أساسيات في موضوع الإسلام والحضارة ودور الشباب — مرجع سابق ص ١٩٠ بتصرف.

ومن أهداف "التنصير" أو ما يطلق عليه زعماً " التبشير" : —

١ — القضاء علي الإسلام والسيطرة علي معاقله الرئيسية .

٢ — تشكيك المسلمين في دينهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم وتاريخهم، ومساعدتهم في الخروج علي كل ذلك . سواء أصبحوا نصاري أو لم يصبحوا .

٣ — إفساد المسلمين وتحطيم وحدتهم وأخلاقهم ، ليسهل التغلب عليهم واستعمار بلادهم .

٤ — التجسس علي المسلمين وبذلك كان هؤلاء المنصرون خدماً للاستعمار الأوروبي ومصالحه في بلاد المسلمين .

٥ — تغريب أبناء الشرق المسلم وإبعادهم عن دينهم وتاريخهم ولغتهم وقيمهم وربطهم بأوربا . وتقطيع أواصر القربي بين الشعوب الإسلامية [١] .

وقد اتخذ التنصير لتحقيق أهدافه وسائل منها : —

١ — المدارس المختلفة التي فتحت في أرجاء العالم الإسلامي وباشرت تلك المدارس التأثير علي الطفولة البريئة والشبيبة الغضة من أبناء المسلمين .

وكانت لها نتائج إيجابية محدودة . فإن لم تغير عقائد التلاميذ فقد بذرت فيهم بذور الشك والانحراف الأمر الذي لا ينكره رجال الغرب أنفسهم .

ولا تزال من آثار تلك المدارس الجامعة الأمريكية وغيرها في كل من مصر وبيروت .

٢ — البعثات إلي الدول المسيحية الغربية . وكان لها أثر كبير في تغيير المفاهيم عند المبعوثين .

فرجعوا إلي بلادهم وهم يتحدثون عن الرقص في باريس وأنه نوع من الأناقة والفتوة . كما تحدثوا عن الحرية التي أعجبوا بها . لكنهم فهموها الفهم الغربي الذي يؤدي إلي

١) انظر في ذلك : حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر ص ١٦٠ — ١٦١ — أحمد عبد الوهاب .

التحرر من الأخلاق ومن الدين نفسه[١] .

٣ — فتح المستشفيات . وبعث الإرساليات الطبية . التي يقرر كثير من المنصرين في مؤتمراتهم وكتاباتهم . أنها أدت إلي نتائج أسرع وأفضل من أعمال القسس التنصيرية[٢] .

٤ — المحاضرات والندوات والكتب والمجلات والصحف والنشرات والمؤتمرات الدورية التي تعددت وانعقدت في كل من القاهرة والهند والقدس وألمانيا وانجلترا . بهدف البحث عن أفضل الطرق والسبل لدفع عجلة التنصير إلي الأمام[٣]

٥ — العمل تحت غطاء الخدمات الاجتماعية والصحية والمهنية وهذا الأسلوب اتبعه دعاة الصليب في أفريقيا وآسيا لأن معظم الدول الإسلامية فيها تعاني من الفقر والمجاعة .

٦ — إنشاء الكنائس . فقد أكثروا من إنشاء الكنائس الوطنية، وأنشأوا كنائس أخري غربية في ديار المسلمين لتكون مركزاً أساسياً من مراكز التنصير في العالم الإسلامي .

٧ — تسخير وسائل الإعلام لنشر النصرانية . فقد سخرت كافة وسائل الإعلام وفي مقدمتها الإذاعة والتليفزيون وأجهزة الفيديو والسينما وأدوات الطباعة[٤] .

١) انظر : أساليب الغزو الفكري — د/ علي جريشة وزميله ص ٣١ بتصرف.

٢) التبشير والاستعمار — ص ٥٩ د/ عمر فروخ وزميله — بتصرف .

٣) الغارة على العالم الإسلامي ص ٣٩ وما بعدها — أ. ل شاتليه — الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٥ وما بعدها

٤) انظر : حقيقة التبشير بين الماضي والمستقبل — أحمد عبد الوهاب ص ١٧٨.

أما الأساليب التي اتخذها التنصير مع وسائله لتحقيق أهدافه هي:

١ – معرفة اللغات الشرقية المتعلقة بالشرق الإسلامي للتعرف على عقائده وعباداته ومعاملاته .

٢ – معرفة لغات من يراد تنصيرهم .

٣ – طباعة الكتب العربية في أوربا عن طريق المطابع التي أقاموها هناك وقد تم طباعة كتب عربية مختلفة من بينها مؤلفات ابن سينا في الطب والفلسفة وغيرها .

الطريق الثاني : ■

كان الطريق الأول للغزو الثقافي للبلاد الإسلامية وللمسلمين هو التنصير.

أما الطريق الثاني : الاستشراق

وهو : مصطلح يطلق على الدراسات التي يقوم بها علماء غربيون حول الشرق كله بصفة عامة ، أقصاه ، ووسطه وأدناه . في لغاته وآدابه وحضارته.

وبصفة خاصة حول الدراسات العربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وعقائده وتشريعاته وآدابه وتاريخه وحضارته من أجل الوصول إلى أهداف غير علمية على الإطلاق تعمل على تحقيق السيطرة المادية والمعنوية لهم على بلاد الإسلام (١).

وهذا المعنى الأخير هو الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي والإسلامي. عندما يطلق لفظ "استشراق" أو كلمة " مستشرق" وهو أيضاً الشائع في كتابات المستشرقين المعنيين والدراسات الاستشراقية بدأت في صورتها البدائية على يد يوحنا الدمشقي في القرن

١) تراث الإسلام ص ٧٨ قلسيم رودنسون ترجمة د/ محمد زهير السمهوري – تعليق د/ شاكر مصطفى – مراجعة فؤاد زكريا / عالم المعرفة – الكويت ، وانظر : الاستشراق ص ١٨ د/ محمود حمدي زقزوق – بتصرف .

الأول الهجري ومنذ الفتح الإسلامي للبلاد الأسيوية والأفريقية في الشام ومصر والمغرب العربي، وكانت آنذاك تحت النفوذ الصليبي الروماني في القرن الأول الهجري.

يقول المستشرق " برنارد لويس" : " إن الصدام بين الإسلام والنصرانية بدأ في حياة الرسول ﷺ عندما أدى التوسع في نفوذ الجماعة المسلمة بالمدينة المنورة إلى تصادم المسلمين بالقبائل المسيحية على الجهات الشمالية للجزيرة العربية (١) ، ولم يمت هذا العداء، بل ازداد في أثناء الحروب الصليبية في الشام ، ومصر والأندلس في العصور الوسطى ، ثم بلغ ذروته بعد الفتح الإسلامي العثماني لأوربا ، وإدخال بعض أراضيها ضمن أرض الإسلام (٢) .

وقد اقترن علم الاستشراق منذ بداياته بنتائج الرهبان والمنصرين وعلماء اللاهوت الغربيين الذين وجهوه توجيهاً دينياً فأول المستشرقين يوحنا الدمشقي كان من اللاهوتيين النصارى حيث بدأ بتحريك الأحقاد الصليبية ضد المسلمين في بلاد الشام. وفي العصور الوسطى كان اللاهوتيون النصارى هم الذين حركوا ملوك أوربا وأمرائها لحرب المسلمين تحت شعار انقاذ الصليب المقدس من أيدي المسلمين في فلسطين من الحروب الصليبية إلى العصر الحديث ، وكانوا بمثابة كتائب استطلاع أمام الجيوش الصليبية ليسهلوا عليها مهمة غزو بلاد المسلمين.

ومن ثم فإن الاستشراق كما يصفه الشيخ محمد الغزالي (يرحمه الله): " كهانة تلبس مسوح العلم

١) انظر : تراث الإسلام ص ٢٦٢ مرجع سابق .

٢) انظر : التبشير والاستعمار في الدول العربية – د/ عمر فروخ ومصطفى الخالدي ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨.

والرهبانية في البحث وهي أبعد ما تكون من بيئة العلم والتجرد ، وجمهرة المستشرقين يعملون لإهانة الإسلام، وتشويه محاسنه والافتراء عليه [1].

ولذلك فإن الاستشراق ليس منهجاً دراسياً مشوهاً عن الإسلام والمسلمين فحسب، بل أيضاً نظام سياسي استبدادي يكمل الهدف الاستعماري الغربي العام.

أهداف الاستشراق

لقد كان للاستشراق أهداف متعددة الاتجاهات نوجزها فيما يأتي :

١ــ أهداف دينية .

٢ــ أهداف علمية .

٣ــ أهداف تجارية .

٤ــ أهداف سياسية .

---

١) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ص ٨ دار الكتب الحديثة ١٩٦٥م.

وكلها مرتبطة بعضها ببعض لخدمة الاستعمار وتمكينه من السيطرة على البلاد الإسلامية والحد من اتساع الإسلام وانتشاره.

أولا : الهدف الديني

كان وراء نشأة الاستشراق ، ودعم الدراسات الإسلامية والعربية في أوربا ، ففي القرن السابع عشر رفع المستشرقون الإنجليز إلى حكومتهم وإلى المسئولين في جامعة كمبردج طلبا يلتمسون فيه أن تكرس الدولة والجامعة جهداً للدراسات العربية والإسلامية ، وبينوا في طلبهم أن ذلك لا يعود بالفائدة على مجال الاستشراق فقط ، وإنما يمثل خدمة كبيرة لمصالح بريطانيا الاستعمارية والاقتصادية ، ونشر النصرانية بين من أسموهم " أولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهالة" [2] يقصدون المسلمين.

---

٢) انظر : المستشرقون والإسلام ص ١٥ د/ عرفان عبد الحميد .

وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه ذلك الهدف الديني.

والهدف الديني للاستشراق كان يسير منذ البداية في اتجاهات ثلاثة متوازية تعمل معاً جنباً إلى جنب ، وتتمثل هذه الاتجاهات فيما يأتي : ــ

أ ــ محاربة الإسلام . والبحث عن نقاط ضعف فيه وإبرازها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية والانتقاص من قيمه والحط من قدر نبيه .

ب ــ حماية النصارى من خطر الإسلام. وذلك بحجب حقائقه عنهم. وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين.

ج ــ تنصير المسلمين . فكان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحي [1] .

---

١) الإسلام والمستشرقون د/ عبد الجليل شلبي ص ١٢ بتصرف.

ثانيا : الهدف العلمي

كان مقصد بعض من ظهروا في عصر التنوير في أوربا ، لتشويه صورة الإسلام ، وإظهار علماء المسلمين والثقات بما يسئ الظن بهم أو تصوير المجتمع الإسلامي في صورته الصحيحة ، أو تحريف العلوم الإسلامية عند تناولها بالبحث وإثارة الشكوك فيها .

فالاستشراق لم يتغير في وسائله وأهدافه ، في عصر من العصور وإن اضطر القائمون عليه إلى إحداث تغيير يتواءم مع كل مرحلة من مراحل الاستشراق التاريخية ، يكون هذا التغيير شكليا لا جوهريا ، وتكون مبررات ذلك التغيير إيجاد التناسب الذي يتلاءم مع أسلوب العصر في إلحاق الضرر بالإسلام والمسلمين [2] .

---

٢) انظر : الاستشراف (النشأة ــ الذرائع ــ المحتوى) ــ أحمد فرج ص ١٩.

ثالثاً : الهدف التجاري

ظهر في عصر ما قبل الإستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

فقد كان الغربيون مهتمين بتوسيع تجارتهم والحصول من بلاد الشرق على المواد الأولية لصناعاتهم التي كانت في طريقها للازدهار.

ومن أجل هذا وجدوا أن الحاجة ماسة للسفر إلى البلاد الإسلامية . والتعرف عليها . ودراسة جغرافيتها الطبيعية والزراعية والبشرية ، حتى يحسنوا التعامل مع تلك ويحققوا ما يصبون إليه من وراء ذلك من فوائد كثيرة تعود على تجارتهم وصناعتهم بالخير العميم.

ولذلك كانت المؤسسات المالية والشركات. وكذلك الملوك في بعض الأحيان . يزودون الباحثين بما يحتاجون إليه من مال. كما كانت الحكومات المعنية تمنحهم الرعاية والحماية.

جاء في مذكرة رفعها أحد المستشرقين الذين يعملون مستشارين استعماريين .. إلى المسئولين في جامعة " كمبردج " مطالباً فيها بإنشاء كرسي للدراسات العربية والإسلامية ومما جاء في هذه المذكرة :

" يضع المركز نصب عينه خدمة مصالح الملك والدولة ذلك بالعمل من أجل ازدهار تجارتنا مع الأقطار الشرقية وتوسيع حدود الكنيسة إذا شاء الله في الوقت المناسب ونشر هدى الدين المسيحي بين أولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهالة " [1] .

---

١) المستشرقون في الإسلام ص ١٥ د/ عرفان عبد الحميد بتصرف وأيضاً :

رابعاً: الهدف السياسي:—

ومنذ هذه الحقبة التاريخية (القرن التاسع عشر والقرن العشرين) ظهر واضحاً جلياً الاستعمار الغربي واتسع مداه.

كما حظى بالرعاية والاهتمام من قبل الدول الرسمية الاستعمارية.

ويعترف أحد المستشرقين الهولنديين بدعم الدول الاستعمارية للاستشراق ورجاله، وهو لا يربط الاستعمار الهولندي بالاستشراق في الظاهر، وإنما يعبر عن ذلك بمصالح هولندا التجارية التي اضطرت هولندا إلى السعي من أجل الوصول إلى أرض تسيطر عليها اقتصادياً فأدى بها ذلك اضطراراً إلى احتلال بقاع وسيعة من الأرض في اندونيسيا ، ومكنت لنفسها سياسة قائمة على الاستغلال المادي [1] واضطرت الدول المستعمرة أن تعلم موظفيها في المستعمرات لغات تلك البلاد وأن تدرس لهم آدابها ودينها. ليعرفوا كيف يسوسون هذه المستعمرات التي يحكمونها ، وقد اتجهوا إلى العناية باللغات ، واللهجات العامية ، والعادات السائدة كما عنوا بالدين والشريعة.

أساليب الاستشراق ووسائله

ولتحقيق أهدافه تلك استخدم المستشرقون وسائل منها :

١ـ التدريس الجامعي : وذلك بإنشاء معهد خاص للدراسات الإسلامية في كل جامعة أوربية أو أمريكية وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس الجامعي

الاستشراق وخلفية الصراع الفكري د/ محمود حمدي زقزوق ص ٣٠.

١) انظر : الدراسات العربية في هولندا لشرودر ص ٤٩.

وتعليم العربية ، وتخريج الدارسين في أقسام الماجستير والدكتوراه ، ولكل معهد مكتبة عامرة بالكتب والمراجع العربية والإسلامية. وتفتح هذه المعاهد أبوابها للدارسين من كل مكان . ومنها يتخرج أيضاً أعداد لا بأس بها من العرب والمسلمين الذين يعودون إلى بلادهم لتولي مهمة التدريس في جامعات بلادهم.

ويتفانى المستشرقون في أعمالهم ويخدمون أهدافهم بإخلاص تام وتفان إلى أقصى حد. ولهم معرفة جيدة بأهم ما ينشر عن الدراسات العربية والإسلامية في بلادنا .

٢ـ **جمع المخطوطات العربية** : اهتم المستشرقون منذ زمن بعيد بجمع المخطوطات العربية من كل بلاد الشرق الإسلامي بطرق مشروعة وغير مشروعة ، واهتموا بها اهتماماً كبيراً وعملوا على حفظها وصيانتها من التلف ، وفهرستها فهرسة تساعدهم على الانتفاع بها وتسهيل ما يصبون إليه من ورائها .

٣ـ **التحقيق والنشر** : قام المستشرقون بتحقيق كثير من كتب التراث وقابلوا بين النسخ المختلفة ، وأثبتوا ما حسبوه يتوافق مع مصالحهم، ويتمشى مع ميولهم وحذفوا ما رأوه يتعارض مع ما يريدون ويسعون إليه ــ ولا شك بأنهم دسوا السم في العسل كما يقولون وهذا موضوع ليس محله وسوف نفرد لذلك بحثاً مطولاً نكشف فيه ذلك بمشيئة الله عز وجل.

٤ـ **الترجمة** : قاموا أيضاً أي المستشرقون بترجمة مئات الكتب العربية والإسلامية المتعددة في الفلسفة والطب والفلك وغير ذلك.

٥ـ **التأليف** : قام المستشرقون بتآليف كثيرة في الدراسات الإسلامية والعربية. وبلغ

ما ألفوه عن الشرق الإسلامي في قرن ونصف (القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) ما يقرب من ستين ألف كتاب ، بعضها ذات فائدة، وبعضها يزخر بالطعن في الإسلام ، وبعضها يمتلئ بالأكاذيب .

أساليب الاستشراق

١ـ القول ببشرية القرآن : وأنه ليس من عند الله .

٢ـ القول بأن القرآن تعبير عن الحياة التي وجد فيها الرسول ــ ﷺ ــ وهو لا يصلح لزمان آخر .

٣ـ اللغة العربية الفصحى لا تساير العصر. والدعوة إلى تعلم اللهجة العامية ونشرها في الصحف والمؤلفات.

٤ـ المجتمع الإسلامي في صبغته بالإسلام ــ على حد زعمهم ــ لم يكن على نحو قوي إلا في فترة قصيرة هي الفترة الأولى من ظهور الإسلام. وهذه الفترة هي التي أوجدت نوعاً من التلازم بين الحياة فيه وتعاليم الإسلام. لكن الإسلام في زعمهم لا يوافق التطور.

٥ـ إن التخلف عن تنفيذ تعاليم الإسلام تمليه الضرورة الاجتماعية تحت ضغط ظروف الحياة المتجددة التي لا يستطيع الإسلام أن يكيفها في تعاليمه. وتطبيق الإسلام يعني العزلة والتخلف.

٦ـ إن التطور وهو قانون الحياة الذي لا مفر منه. يجب أن يستخدمه المسلمون في إسلامهم. وذلك بالسير وفق المثل الغربية والتفاعل معها .

وإذن يجب إصلاح الديانة الإسلامية أو القانون الإسلامي على الأقل . حتى يتمشى مع الحياة الغربية حياة العصر.

٧ـ البحث عما يظنونه مواقف ضعف في الدين الإسلامي وتجسيمها وإبرازها ليعرضوها

لشعوبهم حتى يروا الذرة جبلاً والنقطة بحراً.

كإباحة الطلاق، وتعدد الزوجات، وزواج النبي بعدة نساء[1].

ـ التنصير ـ الاستشراق ـ الاستعمار.

وهكذا نجد أن التنصير والاستشراق والاستعمار ثلاثتهم أهدافهم واحدة وغايتهم واحدة مع تنوع الوسيلة والأسلوب: ـ

• القضاء على الإسلام.

• محاربة المسلمين.

• نشر النصرانية وتوسيع دائرة الكنيسة.

• الحد من خطر انتشار الإسلام في البلاد النصرانية.

وتلك هي التحديات التي تواجه الإسلام والمسلمين وتقف حجر عثرة أمام التقدم الإسلامي وهذا هو الصراع القائم بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية ولن يتوقف هذا الصراع حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

"ولله الأمر من قبل ومن بعد.."

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والله نسأل أن ينصر الإسلام والمسلمين، فهو سبحانه وتعالى محيط ومن وراء القصد عليم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

١) انظر في ذلك نظرات في الثقافة الإسلامية د/ أحمد نوفل ص ٤١، ٤٢، وأضواء على الثقافة الإسلامية د/ نادية شريف العمري ص ١٥٥ وما بعدها.

الخاتمة

وبعد الانتهاء من هذا البحث المتواضع اتضح أن المسلمين لديهم من المقومات والإمكانات المادية والروحية ما لم يتوفر لدى غيرهم من الأمم الأخرى.

وما لديهم من هذه المقومات والإمكانات يجعلهم للأمم الباقية قادة وللشعوب سادة لكن للأسف الشديد تركوا ما لديهم من حقائق وكنوز إلى سراب يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

فما لدى المسلمين كافيهم ومغنيهم ومانعهم من أن يتكففوا الآخرين ويمدوا إليهم يد المذلة والسؤال، ليأخذوا منهم ما لا يسمن ولا يغني من جوع. ويستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ومن خلال البحث كانت هذه النتائج والتي استنتجتها واستنبطتها من خلال البحث وبعض الكتب التي نقلت منها هذا البحث وها هي أهم هذه النتائج والتوصيات آمل أن يعمل لتحقيقها.

* * *

أهم نتائج البحث

١ـ الثقافة الإسلامية ثقافة غنية بما فيها من نظم إنسانية بشرية تتوافق وتتلاءم مع طبيعة الإنسان واحتياجاته المادية والروحية.

٢ـ يجب على المسلمين الاهتمام بثقافتهم والعمل على نشرها وتعليمها لأبناء المسلمين وذلك بتعميمها في دور العلم المختلفة.

٣ـ الثقافة الإسلامية تحتوي تراثاً ضخماً من العقائد والعبادات والأخلاق فضلاً عن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي تكفي الإنسان وتلبي رغباته وتضمن له السعادة في المعاش والمعاد.

٤ـ يجب أن تبدأ الثقافة مع النشئ منذ الصغر وفي البدايات الأولى وتظل معه لحمايته من الثقافات الأخرى التي لا تتوافق مع عقيدتنا وتراثنا وإسلامنا وهذا لا يتناقض تماماً مع قبول الآخر بحرص شديد.

٥ـ يجب أن تتعاون الشعوب الإسلامية بكل قوة وعزم لمجابهة هذا الغزو الثقافي وإفساد مخططاته، وكشف زيفه ومؤامراته ولا يتم ذلك إلا بالعطاء والبذل والتضحية بالأنفس والأموال.

٦ـ يجب على المنظمات الإسلامية الممثلة في منظمة المؤتمر الإسلامي، ومؤتمر علماء المسلمين وغيرهما من العمل على تخطيط سليم لعمل إسلامي موحد يتم بمقتضاه دراسة الأحوال لهذه المخططات والتصدي لها، وتقديم كل يد العون والمساعدة لهدمها وهدم مخططاتها ضد الإسلام والمسلمين.

٧ـ التنصير يعتبر الأزهر الشريف عقبة كئود في العالم الإسلامي يقف حائلاً ويمنعهم من مباشرة أعمالها.

فعلى الدول الإسلامية العمل لتقوية وإعلاء شأنه وإحاطته بكل أنواع الرعاية والعناية والمساعدة.

٨ـ يجب أن يكون هناك هيئة عليا تعمل على إنشاء صندوق خاص للدعوة الإسلامية ـ وتقوية الدعاة ضد هذا الغزو الثقافي ـ تتجمع فيه أنواع التبرعات والزكوات والاسهامات الحكومية كانت أو شعبية وتمثل فيها كل الشعوب الإسلامية. وله فروع في كل الأقطار القادرة على الإسهام في ذلك ـ ويتولى هذا الصندوق مجلس إدارة مخلص وفعال.

٩ـ مواجهة الفكر لا يكون إلا بالفكر ولذلك يجب عمل موسوعة فكرية للرد على أفكار الاستشراق الغربي وتفنيد مزاعمه وتكذيب أقواله وادعاءاته.

١٠ـ إنشاء مؤسسة إسلامية علمية عالمية لا تنتمي إلى قطر ولا إلى حكومة ولا إلى هيئة بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وللرسول ، ويكون لديها جمع من الكفاءات العلمية الإسلامية في شتى أنحاء العالم، لمجابهة الفكر الاستشراقي ويكون لها دورات ومجلات علمية واجتماعات دورية ، وتعمل على استعادة أصالتنا الفكرية وأن تقوم بإصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأوربية الرئيسية، وتتفوق على دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين تخطيطاً وتنظيماً وعلماً.

١١ـ تنقية التراث الإسلامي في كل مجالات العلم والمعرفة من كل دخيل لا يتوافق مع روح الإسلام ومبادئه وقيمه وأخلاقه.

١٢ـ دار نشر إسلامية عالمية تعمل على نشر المطبوعات الإسلامية بكافة اللغات حتى تتحرر وحتى لا تظل المطبوعات الإسلامية باللغات الأجنبية تحت رحمة الناشر في الغرب.

* * *

أهم المراجع

١— القرآن الكريم.

٢— التفسير

– (تفسير القرآن العظيم) للإمام ابن كثير.

– (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله محمد القرطبي.

– (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) — لأبي جعفر محمد ابن جرير الطبري.

– (في ظلال القرآن) — للشهيد سيد قطب.

٣— السنة النبوية الشريفة.

– (الجامع الصحيح) المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (صحيح البخاري).

– (صحيح الإمام مسلم).

– (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) لابن حجر العسقلاني.

– (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري) للقسطلاني.

– (الجامع الصحيح) للإمام الترمذي

– (سنن الإمام ابن ماجه).

– (سنن أبي داود).

٤— المستشرقون والإسلام د/ إبراهيم اللبان . ملحق مجلة الأزهر عدد صفر ١٣٩٠هـ.

٥— الاستشراق : المعرفة — السلطة — الإنشاء — إدوارد سعيد — ترجمة د/ كمال أبو ديب . مؤسسة الأبحاث العربية بيروت ط ثانية ١٩٨٤م.

٦— المسار الفكري للاستشراق — آصف حسين — ترجمة مازن مطبقاني مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٧— الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د/

محمد البهي — مكتبة وهبة — الطبعة الثامنة ١٩٧٥م — المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام منشورات الأزهر.

٨— الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري كتاب الأمة رقم : ٥ د/ محمود حمدي زقزوق.

٩— دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين — دار الكتب الحديثة ١٩٦٥م ، الشيخ محمد الغزالي.

١٠— قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام د/ محمود حمدي زقزوق.

١١— معركة التبشير والإسلام د/ عبد الجليل شلبي.

١٢— الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية / إبراهيم خليل أحمد — مكتبة الوعي العربي سنة ١٩٧٣م.

١٣— الاستشراق والمستشرقون ما هم وما عليهم. الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م د/ مصطفى السباعي.

١٤— السنة ومكانتها من التشريع الإسلامي د/ مصطفى السباعي.

١٥— تراث الإسلام : مكسيم رودنسون — بإشراف شاخت ترجمة زهير السمهوري تعليق د/ شاكر مصطفى مراجعة د/ فؤاد زكريا عالم المعرفة — الكويت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

١٦— التربية الإسلامية وفلاسفتها — محمد عطية الإبراشي.

١٧— حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر أحمد عبد الوهاب وزميله.

١٨— ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة د/ عبد الحليم عويس.

١٩- دراسات في الثقافة الإسلامية د/ أمير عبد العزيز.

٢٠- معالم الثقافة الإسلامية د/ عبد الكريم عثمان.

٢١- المدخل إلى الثقافة الإسلامية د/ محمد رشاد سالم.

٢٢- التبشير والاستعمار ـ مصطفى خالدي وعمر فروخ.

٢٣- الثقافة والثقافة الإسلامية ـ سميح عاطف الزين.

٢٤- أضواء على الثقافة الإسلامية ـ د/ نادية العمرسي.

٢٥- حقائق .. ووثائق ـ دراسة ميدانية عن الحركات التنصيرية في العالم الإسلامي . د/ عبد الودود شلبي. الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

٢٦- دفاع عن ثقافتنا ـ أ. جمال سلطان.

٢٧- الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج العربية نظرة إسلامية د/ محمد عبد العليم مرسي.

٢٨- النظم والثقافة الإسلامية ـ د/ مصطفى سمك وآخرين .

٢٩- المؤامرة على الإسلام. الأستاذ/ أنور الجندي.

٣٠- المستشرقون والتنصير. د/ علي بن إبراهيم الحمد النملة.

٣١- الخصائص العامة للإسلام. د/ يوسف القرضاوي.

* * *

فهرس الموضوعات